جواهر التقوى

لفيلسوف الشرق الأستاذ الحكيم

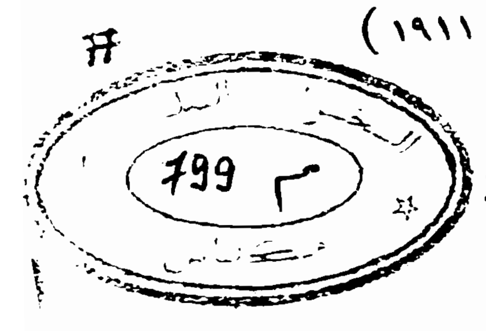
الشيخ طنطاوي جوهري

المدرس سابقاً بالمعارف والفلسفة بالجامعة المصرية

يشمل برامج جميع المدارس المصرية

وهو الذى درسه لطلبة مدرسة المعلمين الناصرية

(دار العلوم فى سنة ١٩١٠ — ١٩١١)



الطبعة الثانية

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر

لصاحبها — مصطفى محمد

١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤ م

المطبعة الرحمانية بمصر

شارع الخرنفش رقم ٣٥ تليفون ٥١٥٢٢

مقدمة ناشر الكتاب فى الطبعة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الكريم

إن الانسان قد شاركته جميع الحيوانات فى حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والسكن وغير ذلك وإنما تميز عنها بالفكر الذى يهتدى به إلى طرق أبواب السعادة وما خص به من الاستعداد للتدرج فى معارج الرقى فإذا شاء الانسان ظهور فضله فى الخلقة ومميزاته عن الحيوان فليأخذ فى تهذيب نفسه وتدريبها على أحسن السجايا.

ولما كانت الأخلاق هى الخطوة الأولى فى ميدان الترقى اهتم بها الأنبياء وبعهم الحكماء فقال صلى الله عليه وسلم (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وقال الغزالى : (كما أن البدن فى الابتداء لا يخلق كاملا ، وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الاخلاق) .

ولقد نحا جميع المتقدمين نحو الغزالى فى الحث على التربية وحسن الخلق فقال ابن المقفع (ما نحن إلى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى الأدب الذى هو لقاح عقولنا)

وهكذا قال الحسن مشيراً إلى من يطلبون العلم والحكمة قبل أن تربى نفوسهم وتهذب فقال (لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويجرى فى العمل مجرى السفهاء)

وحقيقة أن الأخلاق زهرة الانسان ، فكلما كانت مزهرة جلية مال الناس إليها وأحبوها ، وكانت مقبولة لديهم ولا ترقى أمة إلا إذا كان هناك اتحاد فى تهذيب الأخلاق

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فان هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

إن الأخلاق مفتاح العلوم ، وسلم الارتقاء ، وبابها التربية ، أو بعبارة أخرى تدريب النفس على الترفع عن الدنايا والاستمساك بالفضائل وأن ذلك ممكن لكل إنسان عنده مسكة من الحزم

قال الفارابى : إن ارسطو قال فى كتابه (نيقوماخيا) أن الأخلاق كلها عادات تتغير وأن ليس شيء منها بالطبع وأن الانسان يمكنه أن ينتقل من كل واحدة منها إلى غيرها بالاعتياد والتدريب

ولمعرفة طرق التربية والتهذيب والتدريب ينبغى الرجوع إلى ما كتبه العلماء والحكماء فى الأخلاق والتربية ومطالعة آرائهم وأفكارهم ولا سبيل إلى تأليف المؤلفين وفلسفة الفلاسفة ونتائج بحث الباحثين ومربى العقول إلا مطالعة كتبهم ومجلاتهم وجرائدهم . قال ابن خلدون (إن فى الكتابة انتقالا من الحروف الخطية إلى الكلمات اللفظية فى الخيال إلى المعانى التى فى النفس ذلك دائما فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات وهو معنى النظر العقلى الذى يكسب العلوم المجهولة فيكسب بذلك ملكة من التعقل تكون زيادة عقل ويحصل به قوة فطنة وكيس فى الأمور لما تعودوه من ذلك الانتقال)

ولا سبيل إلى الانتقال من الأدلة إلى المدلولات إلا إذا عرف القارىء الوجوه التى وضعت له وإلى أي غاية جرى مؤلفه فى كتابه . وإلا فمن استكثر من جمع العلوم والمعارف وقراءة الكتب من غير أعمال الروية فيما يقرؤه كان خليقاً بالحرمان من ثمرة العلم والحكمة

ثم إن العاقل إذا فهم كتاباً و بلغ نهاية علمه فيه ينبغى له أن يعمل بما علم منه لينتفع به و يجعله مثالا لا يحيد عنه ولا تكون غايته اقتناؤه العلم لمعاونة غيره فيكون كالعين التى يشرب الناس ماءها وليس لها فى ذلك شىء من المنفعة وكدود القز التى تحكم صنعته ولا تنتفع به فينبغى لمن طلب العلم أن يبدأ بعظة نفسه ثم عليه بعد ذلك أن يقبسه

أقول ما أشوق الناشئة إلى العلوم والمعارف ولكن أين هم منها وليس بين أيديهم ما يرشدهم إلى مناهلها وموارِدها وما أشوقنى إلى ايقافهم على جليات الأمور حبا لترقيهم ؛

فلا عملن من الآن جهد الاستطاعة فيما يعلى شأنهم وأتحفهم بثمرات الحكمة وزهرات الأدب كلما سنحت سانحة من الفرص موقناً أن ذلك قربى إلى الله وزلفى لديه بل أراه طبيعة لازمة للنفس لا تفارقها · وأنى لأبر بقسمى وأتقدم إلى الناشئة المصرية بكتاب أراه خير ما يهدى إليهم وهم يستقون العلم و يتغذون بلبان المعارف وحسبى أن هديتى هى كتاب فى الأخلاق للأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى درسه لطلبة مدرسة دار العلوم ورأيت أن أبرزه وأنشره

ولا غرو فقد عودنا الأستاذ الحكيم أن ينفث ببراعته سحر البيان فيأتى بالدرر الغالية وكل جوهرة يتيمة . ترى الاستاذ نهج فى كتابه هذا منهجاً جميلا اذ جمع بين العلم والفلسفة واللغة مع ملاحظته اثبات أقوال علماء الأخلاق ولا أرانى مبالغاً إذا قلت أن هذا الكتاب سيخلق الأفكار والعادات خلقاً آخر فيسطع نور حكمته وتتلاشى أمامه دياجير الجهالة و يأخذ بقرائه إلى الترفع عن الحيوانية واحتقار ما هم عليه من فساد العوائد واستصغار الأخلاق الشائعة و يرقى بهم إلى حياة الانسان الحقيقية حيث تقوم الفضائل ومكارم الأخلاق

هذا هو كتاب (جوهر التقوى) ننشره بين طبقات الأمة المصرية تذكرة لمن يخشى وحسبنا ما مضى من التفريط والتهاون فى كل وسائل الرقى . (قد أفلح من تزكي ، وذكر اسم ربه فصلى ، بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ، إن هذا لفى الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى .

زكريا احمد رشدى
منشىء ومحرر مجلة الرشديات

خطبة الاستاذ الافتتاحية لطلبة مدرسة دار العلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله : أيها الطلاب إن الله عز وجل قد اجتباكم من صفوة المتعلمين . واختاركم من خيرة أهل العلم والدين لتكونوا متعلمين أخياراً . ومعلمين أطهاراً . فاعرفوا قدر النعمة واشكروها بالخدمة وتولوها بمداومة العمل . عسى أن تنالوا الأمل

ان للمتعلم آدابا وعليه واجبات ، إن قام بها رفعته . و إن أهملها وأعرض عنها سفعت بناصيته فخفضته . ورمت به إلى أسفل سافلين .

من آدابه نضارة ظاهره بتعهد البدن والثياب . بالنظافة وكثرة الاغتسال . وتطهير الباطن من الأدناس والأرجاس والعيوب ، ومن لم يعط الجسم حظه من النظافة ، ولم يؤد للروح حقها من التخلي من العيوب ، شغلته الأدران الظاهرة عن المطلوب ، وحجبته ظلمات نفسه عن درك العلم المرغوب . كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون

القلب مرآة ان جلوتها تجلت فيها وجوه الحكمة والعبر ، وان أهملتها تراكمت عليها الأصداء ، وذرت عليها التراب الذاريات ، فلم تصلح متجلى للناظرين . ان في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، و إذا فسدت فسد الجسد كله ، الا وهي القلب . العلم إنما تنمو زروعه وتزهو أشجاره وتنضج أثماره . إذا كانت في أرض طيبة صالحة لزرع الزارعين والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً . كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون . قال بعضهم تطيب القلب للعلم كما تطيب الأرض للزراعة

ومن آداب المتعلم أن يحرص على الطلب أيام دراسته ، ولقد اصطفيتم لتكونوا معلمين ، ومن لم يحصل فى أيام شبابه وهو مع الطالبين ، فما أحراه بالخزى أيام كهولته وهو مع المدرسين . قال سيدنا عمر بن الخطاب تعلموا قبل أن تسودوا . وقال سيدنا الامام الشافعى رضى الله عنه تفقه قبل أن ترأس . فاذا رأست فلا سبيل إلى التفقه . وكما ان الآخرة نتيجة والدنيا مقدمتها . فالكبر نهاية والشباب بدايته . ومن لم يحكم أمر البداية ، لم يحز الفضل فى النهاية (وَمَنْ كَانَ فِى هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِى الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلا) . وفى الحديث الشريف فليأخذ العبد من نفسه لنفسه . ومن دنياه لآخرته . ومن الشبيبة قبل الكبر . ومن الحياة قبل الموت . والذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار . ومن آدابه أن يأخذ من كل فن طرفاً صالحاً ليكون ذا بصيرة فى أمره وعلى بينة من أهل زمانه . مشاركا لهم فيما يعملون . ولقد من الله عليكم بهذه المدرسة . وفيها فنون العلوم . وصنوف الحكم . فاستقبلوا مايلقى عليكم بقلوب واعية . ونفوس صافية . فاشكروا الله عليها بقبول هديته . وافرحوا بفضله ومنحته (قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) .

ومن آداب المتعلم أن يتواضع فان المتكبرين براء من العلم محرومون من الفهم . قال تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِى الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) . ومن آدابه أن يخلص لله فى الطلب . ويتوخى تكميل نفسه . ويعدها لتكميل الطالبين . إذا حل الأجل . وجاء دور العمل ألا وإنكم اليوم تستقبلون أياماً غير أيامكم الماضية . وأحوالا غير أحوالكم السالفة فاقرءوا العلم لتفقهوه . ولا تقرءوه لنيل الشهادة أو ارتقاء الدرجات المعتادة . فان الله عز وجل يعطى الأدنى . عند طلب الأعلى . ومن زرع حنطة أكل وأكلت معه الدواب . ومن اختص حقله بالكلأ والبرسيم حرم أعلى الثمرتين . ونال أدنى الزرعين (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ)

ولقد ضرب الله الكتاب مثلا لبعض العلماء الطامعين الذين اتخذوا العقل خادم الشهوات، والعلم وقفا على الماديات. فقال الله فيه (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) فجدوا فى العلوم لاكتسابها. و إشراق نورها. و بهائها ومحاسن جمالها. ولا تطلبوها تباهياً. وتفاخراً ولا رياء وسمعة. فالدر يستخرجه من البحار الغائصون. والتبر فى معدنه يرتاده الطالبون. إلا وأن الله جعل النشء فى البلاد المصرية مواضع إرشادكم. وحقول زرعكم فان صلحتم صلحت قلوب المتعلمين. وإن كانت الأخرى والعياذ بالله فلا عدوان إلا على الظالمين. ولقد أصبحت البلاد المصرية والحمد لله ميداناً للتسابق. ففتحت أبوابها ونشرت أعلامها. وستكونون إن شاء الله تعالى قادة الناشئين وقدى للصالحين. فاعقدوا فيما بينكم عقد المحبة. واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا. ولا تحاسدوا. ولا تباغضوا. ولا تدابروا ولا يقولن امرؤ منكم. قد سبقنى فلان حقداً عليه فذلك قول الجاهلين. وإياكم والجدل الممقوت. فما ابتليت به أمة إلا ذلت وأضحت فى الهالكين. ولتعلموا أن العامة والخاصة إليكم ناظرة. والألسن لمساوئكم ذاكرة. وقلوب الجهال لمحاسنكم ناكرة. فاذا خلع العذار فاجر قال هكذا رأيت المعممين وإذا شهد الزور. وسعى إلي الفجور وأضاع وقته ونال مقته قال هكذا رأيت سنة أهل الدين. فاقطعوا أيها الطلاب السنة المغتابين بالفضيلة ولا تكونوا دعاة الجهل بأعمالكم. وقادة الخير بأقوالكم. وابتغوا لذلك سبيلا. حافظوا على شرف هذا المظهر الدينى. واحذروا أن يثلم شرفه الرفيع وإياكم أن تلجوا مواطن الشبهات فيسلقكم الناس بالسنة حداد فان الجهلة أحرص على ذم العلماء للحسد الكامن فى صدورهم على ما أتاهم الله من فضله. وليكون ذلك حجة للذام إذا اجترح إثماً. واقترف ذنباً فيدفع عنه لوم اللائمين. ويكسر من حدة المؤنبين. لا وإن طلب العلم من الجهاد. والمجاهد ليس يعنيه إلا أن يغلب عدوه. أو يموت فى سبيل الله. وكلما كثرت صفوف المحاربين وعدد الشجعان القادرين كان

أشد قوة للمجاهدين وأنكى للمعتدين الجهل ألد الأعداء وإخوانك صفوف المحاربين . وأساتذتك قادة الطالبين فأى طالب خاصم أخاه . أولاحاه أو جادله . إلا لطلب الحقيقة . فقد نصر عدوه وهو الجهل . وخذل صديقه وهو العلم واليقين . (قال أبو الدرداء رضى الله عنه من رأى أن الغدو إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص فى رأيه وعقله) فأعدوا أيها الطالبون أنفسكم إلى ما سيلقى إليكم زمامه من تربية النابتة المصرية ولتكونوا مصابيح بكم يستضيئون ويستضىء الناس أجمعون . إن العلماء سرج الأزمنة فكل عالم مصباح فى زمانه يستضىء به أهل عصره

إن الله جعل للمعلم فضلا عظيما . وأجراً كبيراً . وشرفاً رفيعاً . قال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُتُوا ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية (مَا أَتَى اللهُ عَالِماً عِلْماً إِلاَّ أَخَذَ عليه ما أخذ عَلَى ٱلنَّبِيِّينَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ) فاعرفوا قدر نعمتكم وحافظوا على آداب العلماء . واخشوا الله فى خلواتكم ومجالسكم (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ (فمن أجل مقاماً وأرفع رتبة وأعلى شرفاً ممن اجتباه وهداه . وعطفه عليه وعلى ملائكته واصفيائه فقال (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ وَٱلْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمِ) إلا وأن العالم هو الداعى إلى الله على بصيرة . يدعو طبقات الأمة الثلاث للخيرات يدعو الأعلين بالحكمة البالغة . والادنين بالموعظة الشافية . والمعاندين وأهل الجدل بالتى هى أحسن (قال تعالى (إِدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين)

ان هذا الكتاب قسمان قسم فى المسائل العلمية وقسم فى المسائل العلمية

القسم الأول

فى المسائل العلمية

معنى الخلق

هو هيئة راسخة فى النفس عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى روية ولا فكر فلن يكون العمل خلقاً ولا العلم ولا القدرة . فكم من باذل للمال لا كرم عنده لريائه والعلم يتعلق بالجميل والقبيح

والقدرة الانسانية صالحة للضدين من بذل ومنع وإقدام وإحجام وعدل وجور

فالخلق إنما هو صفة النفس وصورتها الباطنة وهو حسن وقبيح

فالحسن ما جمع بين الحكمة فى القوة العقلية . والشجاعة فى القوة الغضبية . والعفة فى القوة الشهوية والعدل بين هذه الثلاث بأن تطيع القوتان الشهوية والغضبية العقل . فأما القبيح فهو ما عدا ذلك ويقل من استكمل الحسن أو القبيح وأكثر الناس بين ذلك

حسن الخلق

حسن الخلق يرجع لكمال النفس . وكمالها بهذه الأربعة الحكمة والشجاعة والعفه ، والعدل . بحيث نميز بالحكمة بين الصدق والكذب فى القول . والحق والباطل فى الاعتقاد والجميل والقبيح فى الأفعال ونخضع الشهوتين للعقل ونعدل بين الثلاثة

قال تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون)

ألا ترى أن الإيمان مناطه الحكمة أو القوة العقلية والمجاهدة بالمال أثر صالح والمخاطرة بالنفس غاية الشجاعة الصائنة للقوة الغضبية

فضيلة حسن الخلق

قال الله تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) وقال صلى الله عليه وسلم إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق وقال أثقل ما يوضع فى الميزان تقوى الله وحسن الخلق وأتاه رجل من بين يديه ثم من قبل يمينه ثم من قبل شماله وهو فى كل ذلك يسأله ما الدين فما كان جوابه إلا أن يقول له حسن الخلق ثم أتاه من ورائه يسأله فقال أما تفقه هو ألا تغضب

وسئل صلى الله عليه وسلم أى العبادة أفضل قال حسن الخلق وسئل أى الأعمال أفضل قال خلق حسن

المؤثرات فى الخلق

منها التوارث عن الوالدين والمخالطة والبيئة والدين

التوارث عن الوالدين

إنا نشاهد الولد قد يرث عن والديه الطول والقصر والحسن والقبح واللون والصحة والمرض والقوة والضعف وما شا كلها من الأعراض الظاهرة

هكذا يرث أخلاقاً تدعوه للخير وتوقعه فى الشر وبها يميل للفضيلة أو يقع فى الرذيلة من أبان صغره وزمن صباه

لقد شاهدت أيام العطلة فى حجرة الأشكال والتماثيل الانسانية الممثلة للأمراض المعضلة من الداء الافرنجى والآثار السيئة التى ولدها أدمان المسكرات فى مدرسة الطب المصرية صبياً حديث العهد بالولادة مقروح الجلد مشوه الوجه قد ابيضت عيناه من المرض وبرزت على جبهته بثور وقروح كأنها محرقة بالنار . ذلك من جناية والديه وسهم به رمياه ورمح به قبل تمام خلقه ضرباه فاصمياه

هكذا نرى الصغار مختلفى الأخلاق جبناً وشجاعة وكرماً وبخلا وشراسة وحلماً وهم لا يعقلون ولا يعلمون

فهذه المشاهدات تدلنا على أنه من الأسباب المؤثرة فى الأخلاق الميرات عن الوالدين

البيئة

إنا نشاهد الفرق واضحاً بين ولدين أحدهما يسكن الجبال و يشاهد الأحجار والصخوو والسباع والنمور والشواهين والصقور

وآخر درج فى المدن وعاش فى الترف وتربى فى النعيم وأحيط بالملاذ والشهوات وحفظ من الشمس وضحاها ومن القمر إذ تلاها وهو بعد لم يعلم دروس الشجاعة ولم يتلقف ممن يحيطون به إلا دروس الخلاعة .

فأما الأول فتراه شجاعاً قوى القلب مقداماً وأما الآخر فأنه جبان هلوع إذا مسه الشر فهو جزوع و إذا مسه الخير فهو منوع إلا إذا تربى تربية حسنة

فذلك برهان أن للبيئة تأثيراً على الأخلاق . ولقد استمسك علماء المذهب الاجتماعى فى القانون بأن البيئه منبت الأخلاق ومصدر الجرائم وأن الناس أبناء بيئتهم مزارع مجتمعهم تابعون لها صلاحاً وفساداً

وعدوا الجريمة مرضاً والقاضى طبيباً والسجن مستشفى واستصغروا العقوبة البدنية فان فائدتها عقيمة لا تستأصل الذنوب ولا تزيل العيوب

الدين

فأما الدين فأنا نشاهد لكل اتباع دين من الديانات أخلاقاً وعادات يمتازون بها عمن سواهم تبعاً لعقائدهم وطوعاً للأوامر الملقاة لهم من شيوخهم وعظمائهم ، فترى للدين الواحد أخلاقاً عامة فى اتباعه أنى كانوا فى مشارق الأرض ومغاربها وان تباعدت بهم الأماكن وتناءت بهم الأوطان ، كالنصارى والمسلمين واليهود ، فى الشرق والغرب واعتبر ذلك فى الأمم الاسلامية القاطنين فى آسيا ، وأفريقيا ، وأوروبا ، فانهم أموا قبلة واحدة فى صلواتهم الخمس وتناسبت حركات صلواتهم

وكلمات دعواتهم وخضعوا بذلك لربهم وقام فريق من كل قبيل كل سنة يؤمون الـكعبة و يتشاورون فى أمورهم الدينية والدنيو ية و يتفاوضون فى شؤوبهم ثم يرجع المسافرون إلى أوطانهم فينشرون أحاديث الحج وذكر الأماكن المقدسة كل ذلك داع حثيث لتعاطفهم وتراحمهم ، وتوادهم وتخلقهم بأخلاق دينهم والقيام بشعائره وتأثرهم بما أضافته الجوارح على القلب من الآثارالصالحة والفضائل العالية .

وقد يؤثر دين الأمة أخلاقاً سيئة إذا عدل به عن سننه ونسب القائمون به له انه يحض على القعود عن الـكسب أو يأمر بالعطف على العشيرة وحدها واشقاء غيرها لاسعادها كما أعرفه فى بعض الديانات القديمة المبيحة للربا مع غير أهل الدين وتحريمه معهم فظهر أن للدين أثراً فى النفوس وهو من المؤثرات فى الأخلاق .

المخالطة و تاثيرها فى الأخلاق

أما المخالطة فانا نشاهد الصبيان يتعودون بعادات الوالدين إذا لازموهما فى غدوهم ورواحهم ودرجوا معهم بمساهم ومصبحهم فترى الولد يتلقف عوائد أبيه و يحب من أحبه ويكره من كره إذا لازمه كقول من قال

وينشأ ناشىء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

فان ساعده الحظ ولاحظته العناية و بعث به إلى المدرسة أو المساجد الدينية تعود بعوائد شيوخه وأصبحت نفسه نسخة من نفوسهم مطابقة لأصلها وترى الرجل الذى درج بين الشجعان شجاعاً و بين الصالحين صالحاً ومما يسند لسيدنا على

يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ماشاه
وللناس على الناس مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب دليل حين يلقاه

كما ان الوقود يوضع فى النار فيتقد و فى البرد فيطفأ والماء اذا ضر به البرد انقلب ثلجاً أو مسته الحرارة صار بخاراً ، هكذا الانسان يكون من الصالحين والطالحين بحسب من يعاشرهم و يصاحبهم قال الامام الغزالى ان جنتك ونارك أثران من أثر

من تعاشيرهم . فثبت ان المخالطة من الأسباب القوية فى الأخلاق وظهر ان من أقوى المؤثرات فى الأخلاق الميراب عن الوالدين . والبيئة والدين والمخالطة .
وأما العادة فانها كما يقال طبيعة خامسة

مقصود علم الاخلاق

تخلية النفس وتحليتها — السعادة الحقيقية والسعادة الوهمية

آيات قرآنية — دفع وهم — حكاية

إليك اللهم نوجه هممنا ونقدم نفوسنا ضارعة إليك أن تهدينا الصراط المستقيم صراط الذين خلصت نفوسهم من شوائب الرذائل ووضعت عنهم اصر الغوائل ووصلت لهم حبل الفضائل فنبذوا الحقد والحسد والتقاطع والتدابر والكبرياء ظهريا وقاموا إليك بجمعهم يشكرون ونستعين بك فى هدايتنا للأخلاق الفاضلة علماً وعملا وتمكيناً حتى ننال السعادة مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً

علم الأخلاق

مقصود علم الأخلاق أن نتخلى عن الأخلاق الرديئة الشائنة ونتباعد عن الشرور المزرية وأن نتحلى بالأخلاق الفاضلة بحيث تصدر عنا الأفعال الجميلة بلا كلفة ولا مشقة وأن يكون ذلك على نظام طبعى وترتيب علمى

تخلية النفس وتحليتها

كم يلصق بالانسان من عيوب ورثها عن الوالدين وكم وصمة تناله من قرنائه وعشيرته وأهل جيله المخالطين . الا وانها لتدنس نفسه وتضميها وتخفى سعادتها وترديها الا وان هذا العلم جلاء لصدئها وحلية لجوهرها (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

الناس مختلفو الغرائز متفاوتو المشارب ورب امرىء خلا من أكثر العيوب

بمجلته ومعاشرته وكثير من الناس يرثى لهم بما اتفق لهم أيام الشباب وعلق بهم زمن الصبا .

والآخرون أحوج لدراسة هذا العلم والتحلى بجماله والتجمل بكماله

السعادة الحقيقية والسعادة العرضية

التكاثر بالمال سعادة الجاهلين والتباهى بالرياش واللباس والزينة حظ المغرورين والتفاخر بالحلى وألوان الطعام والانهماك فى اللذات شأن الغافلين

ان كل ذلك لما سلم لسعادة النفوس وطريق لصلاح الروح فمن وقف فى الطريق الحيوانى الذى ذكرناه فقد شقى شقاء الأبد وتنزل عن رتبة الانسانية واستبدل الذى هو أدنى بالذى خير وأبقى

آيات قرانية

قال تعالى : (ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) وقال جل شأنه (يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ) وقال تبارك وتعالى (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) وإنما كانوا أضل من الأنعام لأنها لايتسنى لها درك رتبهم وهم عليها قادرون

ولقد فعلت غاية ما خلقت له وهم مقصرون فيما هم له مخلوقون

فأى سعادة لمن دس نفسه فى طوائف الحيوان . وأى فرح ونعيم لمن حبس نفسه فى سجن الشهوات . وزجها فى ظلمات الآراء الفاسدة ، والأخلاق الشائنة من الحقد والحسد والطمع والشره وقصر العقل على مابه يتمتع الحيوان

دفع وهم

إياك أن تظن أن من يزكى نفسه ينبذ المال ولا يتجمل باللباس أو لا يتعاطى من اللذات مابه يعيش كلا و إنما الفارق بينهما ان الجاهلين الأشقياء يظنون ان الشهوات غايات والفضلاء السعداء يعلمون انها مقدمات واحذر الخطأ فى هذا المقام فانه مزلة لأقدام

حكاية

سئل بعض العلماء بم شرف الانسان أبتعاطى ألوان الطعام قال كلا فالخنزير أكثر أكلا منه . قيل فباللباس والزينة . قال كلا فالطاووس أجمل زينة منه . قيل فبالغلبة . قال كلا فالأسد أشد قوة منه . قيل فبعظم الجثة . قال كلا فالفيل أعظم منه . قيل فبماذا قال بالعلم والخلق الجميل

عناية القرآن بتهذيب النفس

من تصفح آيات القرآن وتدبرها رأى أنه حث على التخلق بالأخلاق الفاضلة فى أكثر من سبعمائة آية كما حث على النظر فى عجائب الحكمة الالهية فى مقدار هذا العدد .

أو ليس من العجب أن نغفل عما به أمرنا الله أوليس من الخجل ألا يكون لنا حظ من الأخلاق الفاضلة وبحث وتنقيب عما فى العوالم العلوية والسفلية من العجائب الحكمية . نبذنا الأخلاق وجهلنا عجائب الصنعة الالهية والكتاب يأمرنا والله ينذرنا ألم تر كيف يقول الله (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا الآية) ويقول(واذكرْ فى الكِتابِ اسماعيلَ إنه كان صادقَ الوعدِ وكانَ

رَسُولاً نبياً ، وكان يأْمر أهلَهُ بالصلاةِ والزكاةِ وكان عند ربهِ مرضياً)
فانظر كيف قدم صدق الوعد فى أول أوصافه ولعمرى أن مثل هذه الأخلاق من
أول واجبات الدين .

أنا لا أطيل بذكر الآيات فان لذلك مكاناً آخر ، وكما حث عليه القرآن
الشريف اهتم به الحكماء فى مشارق الأرض ومغاربها من مصريين ويونانيين
ومسلمين وأوروبيين وجعلوه قسما من الحكمة العملية وذلك أن الحكمة (هى معرفة
الأشياء بقدر الطاقة البشرية والتحلى بالأخلاق المرضية) . إما نظرية وإما عملية
والأولى هى الرياضيات ، والالهيات ، والطبيعيات والثانية هى تهذيب النفس ،
وسياسة المنزل ، وسياسة المدينة ، فالثلاثة الأخيرة أقسام الحكمة العملية .

ولما كان مقصود هذا العلم تهذيب النفس ، وجب أن نبحث عن ماهيتها
وحقيقتها على قدر الطاقة البشرية فنقول : —

النفس جوهر شريف مخالف لماهية الجسم وحقيقته . ألا ترى أن الجسم لا يقبل
شكلين معاً ولا تتزاحم عليه الألوان والاعراض بل يتلقاها واحدة واحدة فالكرة
لا تقبل التربيع والطويل لا يقبل القصر إلا إذا محى أول الشكلين واستبدل بآخر
والشمع المطبوع لا يقبل غير نقشه مع بقائه والمعدن لا يقبل نقشين معاً والذهب
لا يصاغ قرطاً وسوراً معاً وليس يكون الجسم أبيض وأخضر أو أحمر معاً

وهذه الأوصاف تنافى أحوال الروح وتغاير خواص العقول فاننا نحس بالفرح
والحزن والنفع والضر ونتصور الطول والعرض ونعقل علوماً ونتذكر حوادث
وأحوالا ولا يغاير آخرها أولها ولا يمحو لاحقها سابقها وقد يزداد المرء قدرة بعلم
سابق على حوز علم لاحق ، ومن عجب أن نتصور الألوان والطعوم والروائح ، ولا
نتصف بتلك الأوصاف وهذا مباين لحال الأجسام

والعقل يدرك المعقولات وهو بها مغرم وله قضايا أولية ليست من الحواس
تتعالى بهمته إلى قمة الجوزاء ويتصرف بها فى أكناف السماء يدرس الأفلاك

وحسابها والنجوم ومداراتهـا والطبائع ونواميسها وليس ذلك حال جسمه .
أنه لا يألف إلا المحسوسات بالحواس مما يزيده قوة وطولا وعرضاً . يغلط الحس
فيرى الكبير كالشمس فى السماء والرجل فوق الجبل الشامخ صغيراً . والساكنات
من الأشجار متحركات ذلك شأن راكب السفينة وقطار البخار . وليس يدرك
غلطه إلا المعقول والمزيف للشيء أرقى منه . والعالم الكامل أرقى من العابد الجاهل
إلا وأن الروح من جوهر أرقى من الجسم كم يذم الناس ويأنفون ممن يستزيد من
الطعام والشراب . ويحبون ويمدحون من تحلى بالعلوم . وجعل حياته وقفاً عليها
ونفع العباد ورفع البلاد

فما أعظم الفرق بين الرجلين . وما أبعد المسافة بين الجوهرين . الجسم والروح
العقل يعلم ويعلم أنه يعلم ويعلم نفسه والعين مثلا لا ترى نفسها ولا تنظر ما فى داخلها

كمال النفس

كمال النفس بالأخلاق والعلوم فهى خاصتها التى بها تمتاز عن سائر المخلوقات
وكما أن للشمس والقمر والجماد والنبات والحيوان كمالات خاصة بها كالضياء والنور
وحدة السيف وثمرة النخل وكر الحصان وفره هكذا كان كمال الانسان الخاص من
بين سائر المخلوقات الأخلاق الشريفة والعلوم العالية كما ورد فى حديث (تخلقو
بأخلاق الله) *

أقوال عامة فى تهذيب الأخلاق

(١) النظر فى جمال الخليقة الالهية (٢) العمل المؤدى لحسن الخلق
(٣) الطرق الأربعة عند العلماء فى التهذيب (٤) القرآن
(٥) أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم

عرفت أيها الطالب أن الروح جوهر لطيف جميل يخالف الأجسام ولها السيطرة
العظمى والسطوة الكبرى على المادة وتوابعها ولها شوق وتوق إلى الجمال والمحاسن

والنضارة وبهجة الأشكال لما لها من الأستعداد التام للعلوم والمعارف وليس للأجسام أن تقبل إلا أشكالا محدودة وأصباغا معدودة كما قدمنا بالبرهان . فإذا استجليت المناظر الطبيعية وتبينت جمالها عرفت وجوه المحاسن وتجلت لك بدائع الجمال فى القبة السماوية والكرة الأرضية والعجائب الحيوية . فقد رسمت فى لوح عقلك . وأودعت فى خزائن نفسك ونقشت على صفحات قلبك صور الجمال وصبغة تلك الألوان العجيبة والأشكال الربانية في الطبيعة الكونية بصبغة الجمال والكمال (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون)

تأمل السماء ونجومها وشمسها وهلالها وبدرها وفكر فى ألوانها وأقدارها وتناسبها وتناسقها ثم انظر السحب المزجاة فى الجو والرياح الذاريات والبرق الوامض والودق والثلج والبرد ، ثم انثن إلى البحار الملحة والأنهار العذبة وأنواع المعادن وما فى الجبال من جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ثم عرج على الحقول ذات البهجة للناظرين وما أنبت الله فى الأرض من كل زوج بهيج (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) وأسمع تغريد الطير فى أوكارها وخرير المياه فى أنهارها وكن من المفكرين

المناظر الجميلة البديعة فى الصنعة الالهية تعشق نفسك فى الفضيلة وتدعوها للترقى فى الحكمة مع العالمين . ألا وأن بين الأرواح والجمال مناسبة فاذا رأته ألفته وعشقت الفضيلة والأعمال فضلا عما تزدان به من الحكمة والعلم . ولذلك ورد فى القرآن للحث على النظر من الآيات ما يربو على سبعمائة آية هى جواهر القرآن إلا وأن الرياض الزاهرة والبساتين الناضرة ودوحاتها المزهرة وأطيارها المغردة نعمة من الله ورحمة للناس ومدارس لتحسين الأخلاق وتهذيب النفوس ولذلك تجد الأمم أوفر بساتين وأكثر رياضاً كلما كانت أرقى مدنية وأوسع ملكا وأوسع علما . فعلى الأمم الراشدة أن تنشىء الرياض وتغرس الأشجار وعلى طلابها أن يتبوأوا مقاعدها ويتفيئوا ظلالها ويستنشقوا عبيرها كلما سنحت لهم سانحة الراحة

من الدراسة لتكون الراحة لهم تهذيباً وتأديباً وبهجة وجمالا ويبتهجوا بنضرتها ويميزوا ما بين محاسن جمالها فى دوحاتها وطرقاتها وهم فرحون ليقرأوا قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) وقوله تعالى (فأنبتنا به حَدَائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كان لكم أن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا)

الأعمال المتممة لحسن الخلق

منها المحافظة على الصحة وتدبير الغذاء ومراعاة أوقاته واجتناب التخمة.

ومنها النظافة الشرعية وتكرار الاغتسال. ومن عجب أن يقول الانجليزى بنتام أن من واظب على الطهارة الشرعية فى الدين الاسلامى خلا ظاهره من الذنوب و برئت نفسه من العيوب . ولقد استقريت المجرمين الذين جمعتهم السجون فلم أر فيهم إلا قذر الجسم وسخ الثياب فالطهارة من محاسن الأخلاق

ومنها ترتيب الثياب وأدوات المنزل والمحافظة على النظام واجتناب مخالطة الذين ساءت أخلاقهم من أهل الشر والجهال ومخالطة العلماء ومجالسة الحكماء ومجاورة الصالحين

ومنها أن يجعل المرء لكل وقت عملا خاصاً وللراحة وقتاً وللشغل وقتا

ومنها توجه القلب فى الصلاة لله عز وجل حتى يشرق بالجمال وحسن الخلق قال تعالى (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)

ومنها الرياضة الجسمية

الطرق الأربعة لتهذيب النفس

(١) العقل (٢) الشيخ (٣) العدو (٤) الصديق

للعلماء فى التهذيب طرق أربعة ذكرها الامام الغزالى فى الاحياء فمنهم من ينصح للطالب بالاعتبار بما يلوح له فى معاشريه وما يبدو له من مخالطيه فيتخذ منها الحسن لنفسه ويصطفيه ويتجنب باطلها وينفيه ولهذه الاشارة بقوله تعالى (فَبَشِّرْ

عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَاهُمُ ٱللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ) وقوله صلى الله عليه وسلم اللهم أرنى الحق حقاً فأتبعه وأرنى المنكر منكراً وارزقنى اجتنابه وأعذنى من أن يشتبه علىّ فاتبع هواى بغير هدى منك واجعل هواى تبعاً لطاعتك وخذ رضا لنفسك من نفسى فى عافية واهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم

(مصاحبة الشيخ) و بعضهم ينصح للجاهل أن يصاحب شيخاً ورعا فاضلا مخلصاً كالامام الجنيد ومحيي الدين بن العربى من مشايخ الصوفية

× (الأعداء) ومنهم من يجتنب ما تقوله فيه أعداؤه من العيوب وما يعيره به الشانئون فى وجهه عند احتدام وطيس الخصام وانفصام عرى الوفاق فيتجنبه ورب امرىء نفعه ذم أعدائه وكان شانئه فى الذم أنصح له من صديقه فى المدح وعدو عاقل خير من صديق جاهل

عداى لهم فضل على ومنة ‌ ‌ ‌ ‌ فلا أبعد الرحمن عنى الأعاد

همو بحثوا عن زلتى فاجتنبتها ‌ ‌ ‌ ‌ وهم نافسونى فاجتنيت المعاليا

(الأصدقاء) ومنهم من يتخذ صديقا يبحث فى أخلاقه و يفتش عن عيوبه و يذكرها له بلطف وأدب بحيث لاينفر طبعه ولا يؤلم نفسه ولايشعر بنقص شائن ولا عيب فاضح وإنما يكون بقول لين وكلام حسن فيذكره مانسى ويزيده مما به هداه وأفضل الطرق أولها فانه الدال على باقيها ولكل وجهة هو موليها وان اتخاذ الصديق وانتهاج خطة الشيخ والتنحى عما يذم به الأعداء نعمة من نعم العقل وكوكب اضاءته شمسه وبدر كامل أشرق نوره منه

وليس أجمع لمكارم الأخلاق ولا أدل على أحاسن الشيم ولا أقرب لسعادة النفوس من انتهاج خطة القرآن والاقتداء به صلى الله عليه وسلم ×

آيات القرآن الشريف

علمت ان الله جل جلاله دعا الانسان للفضيلة بجمال العوالم ومحاسن الطبيعة وعجائب الخلقة وخلق الانسان فى أحسن تقويم ونقول الآن انه لم يشأ أن يدع الانسان وشأنه بلا تذكرة ولا تبصرة فى العالمين كلا بل أرسل الأنبياء وأوحى إليهم ان علموا الناس علوم الفضيلة وجمال الأعمال

حسبك ما ترى فى القرآن من الدرر اللامعة والعلوم النافعة فى الأخلاق ومحاسن الآداب وأول من أشرقت عليه أنوارها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إذ قال الله يرشده للتجاوز عن الهفوات ودفع السيئات بالحسنات (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فإِذَا الذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيم وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

وقال يدعو جميع الناس لكظم الغيظ فى مواطنه مادحاً المتصفين به من الناس (والكَاظِمِينَ الغيظَ والعافِينَ عَن الناس واللهُ يُحِبُّ المحسنين) ولقد قدمنا لك أن في القرآن نحو سبعمائة آية فى الأخلاق . ولو أنك قرأت الآيات المتتابعات فى سوره الاسراء لرأيت العجب العجاب من الدور اللامعة والحكم البالغة من الاخلاص لله فى العبادة واحترام الوالدين والقيام عليهما فى كبرهما ورحمتهما وايتاء ذى القربى حقه ومواساة المساكين ومنح ابن السبيل ويكون ذلك بلا اسراف ولا تقتير وتقبيح الزنا وقتل النفس وحفظ مال اليتيم والوفاء بالعهد وايفاء الكيل والميزان ووقوف النفس عند حدها فلا تقل مالا تعلم ولا تقف فى العمل مالا تعقل فنحن عن السمع والبصر وسائر الحواس مسئولون ولها حافظون فإذا فرطنا فى حفظها وتركناها ترتع فى مراتع الهلكة أو أفرطنا فى منعها وحبسها فانا فى الحالين معاقبون وكم ورد فى القرآن من قصص حسنة . تحض على الفضائل وتنفر من الرذائل . ألا ترى مافى قصة عاد من افراطهم وتجاوزهم الحد فى بطشهم وظلمهم حتى قيل لهم وإذا بطشتم بطشتم جبارين وإلى مدين إذ نقصوا المكيال والميزان . فدمروا تدميراً . وذهبت

دولتهم . و إلى قوم فرعون إذ طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد للأمم يهلكهم إذا أفرطوا فى الرذيلة وانسلخوا من الفضيلة .

و إنما الأمم الأخلاق مابقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

و بالجملة فالقرآن الكريم جعل الأخلاق الفاضلة باب السعادة الدنيوية والأخروية فتارة يذكر الأخلاق الحسنة كالصدق والعفة والشجاعة وآونة يذكر القصص الحسنة ومن الاول (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) ومن الثانى (والذين هم لفروجهم حافظون) (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِم عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الكتاب أَلاَّ يَقُولُوا على الله إلا الحقَّ وَدَرَسوا مافيه والدارُ الآخِرَةُ خيرٌ للذين يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعقِلون) هذه الآيات وردت منفرة من الرشوة وحاثة على الفضيلة بالاقلاع عنها والقناعة بما أتانا الله من المال (واذكر فى الكتاب مريم إذ انْتَبَذَتْ من أهلها مكاناً شرقيا) الخ هذا فى العفة وقال فى الشجاعة (كم من فئةٍ قليلةٍ غَلَبَتْ فئةً كثيرَةً بإذنِ الله واللهُ مَعَ مع الصَّابرينَ) (ولقد آتينا داوود وسليمانَ عِلماً وقالا الحمد لله الذى فَضَّلَنَا على كثيرٍ من عباده المؤمنين) للترغيب فى فضيلة العلم

أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم

قد رأيت كيف كانت عناية القرآن بالفضائل فلا عجب اذا كان صلى الله عليه وسلم أعلم الناس به وأكرم الناس أخلاقاً حتى قال (بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأخلاق) ومن عرف هذا الكتاب وعمل به جدير بذلك . قال سعيد بن هشام دخلت على عائشة رضى الله عنها وعن أبيها فسألتها عن أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم فقالت أما تقرأ القرآن قلت بلى قالت كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرْآن وذلك مثل قوله (خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)

وقوله (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) وقوله (وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ) وقوله (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) وقوله (اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

تأديب الله للنبي صلى الله عليه وسلم

ولما كسرت رباعيته صلى الله علية وسلم وشُجَّ يوم أحد جعل الدم يسيل على وجهه وهو يمسحه ويقول كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم الى ربهم فأنزل الله تعالى (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ) وقد مدح الله النبي صلى الله عليه وسلم لما كمل خلقه فقال (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) وبين للناس صلى الله عليه وسلم الخلق الحسن بقوله (ان الله يُحب مكارمَ الأخلاق ويكرهُ سفاسفَها) فمن مكارمه صلى الله عليه وسلم ما روى عن على رضى الله عنه قال يا عجباً لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم فى حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا فلو كان لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً لقد كان ينبغى له أن يسارع الى مكارم الأخلاق فانها مما تدل على سبيل النجاة فقال له رجل أسمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال نعم وما هو خير منه . لما أتى بسبايا طيء وقفت جارية فى السبى فقالت يا محمد ان رأيت ان تخلى سبيلى ولا تُشْمِتَ بى أحياء العرَب فانى بنتُ سيدٍ قومى وان أبى كان يحمى الذمَّار ويفُك العانى ويشبع الجائعَ ويُطعم الطّعام ويُفشِي السلام ولم يرد طالب حاجة قط أنا ابنة حاتم الطائى فقال صلى الله عليه وسلم يا جارية هذه صفة المؤمنين حقّاً لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق وأن الله يحب مكارم الأخلاق فقام أبو بردة ابن خيار فقال يا رسول الله . آلله يحب مكارم الأخلاق فقال والذى نفس محمد بيده لا يدخل الجنة الا حسن الأخلاق . وعن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله حف الاسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال وكان عليه الصلاة والسلام

أحلم الناس وأشجعهم وأعدلهم وأعفهم وأسخاهم لايأخذ مما آتاه الله الا قوت عامه فيؤثر منه. حتى انه ربما احتاج قبل انقضاء العام ان لم يأته شيء. وكان يخصف النعل و يرقع الثوب و يقطع اللحم مع أهله وكان أشد الناس حياء وكان يقبل الهدية ولو جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافئ عليها ويأكلها ، ولا يأكل الصدقة ، ولا يستكبر عن اجابة الأمة والمسكين وكان أفصح الناس منطقاً وأحلاهم كلاماً ، ويقول أنا أفصح العرب وكان كلامه نزرا قالت عائشة رضى الله عنها كان لا يسرد الكلام كسرد كم هذا كان كلامه نزرا وأنتم تنشرونه

صفحه صلى الله عليه وسلم

قال سيدنا على رضى الله عنه بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان فيها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فانطلقنا حتى أتينا روضة خاخ فقلنا اخرجى الكتاب فقالت ما معى من كتاب فقلنا لتخرجنّ الكتاب أو لننزعنّ الثياب فأخرجته من عقاصها فأتينا به النبى صلى الله عليه وسلم فاذا فيه من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم أمراً من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا حاطب ما هذا ؟ فقال يارسول الله لا تعجل على ، انى كنت امرأ ملصقا فى قومى وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب منهم ان اتخذ معهم يداً يحمون قرابتى ولم أفعل ذلك كفراً ولا أرضى بالكفر بعد الاسلام ولا ارتداداً عن دينى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انه صدقكم فقال عمر رضى الله عنه دعنى أضرب عنق هذا المنافق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انه شهد بدرا وما يدريك لعل الله عز وجل قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمه فقال رجل من الأنصار هذه قسمة ما أريد بها وجه الله . فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فاحمر وجهه

وقال رحم الله أخى موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئا فأنا أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر

اغضاؤه صلى الله عليه وسلم عما كان يكرهه

بال إعرابى بالمسجد بحضرته فهم به الصحابة فقال عليه الصلاة والسلام لاتزرموه أى لا تقطعوا عليه البول ثم قال ان هذه المساجد لا تصلح لشىء من هذا وفى رواية قربوا ولا تنفروا . وجاءه اعرابى يوماً يطلب منه شيئا فأعطاه صلى الله عليه وسلم ثم قال له أأحسنت إليك قال الأعرابى لا ولا أجملت ، قال : فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابى وزاده شيئاً ثم قال أأحسنت إليك قال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة فقال النبى صلى الله عليه وسلم إنك قلت ماقلت وفى نفس أصحابى شىء من ذلك فإن أحببت فقل بين أيديهم ماقلت بين يدى حتى يذهب من صدورهم مافيها عليك قال نعم . فلما كان الغد أو العشى جاء فقال النبى صلى الله عليه وسلم إن هذا الأعرابى قال ماقال فزدناه فزعم أنه رضى عنه أكذلك ؟ فقال الأعرابى نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا فقال صلى الله عليه وسلم إن مثلى ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً ، فناداهم صاحب الناقة خلوا بينى و بين ناقتى . و إنى أرفق بها وأعلم . فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها معه قمام الأرض فردها ، هونا هونا ، حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها و إنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار

تواضعه صلى عليه وسلم

كان أصحابه لايقومون له صلى الله عليه وسلم ، لما عرفوا منه كراهة ذلك . وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم وأتى صلى الله عليه وسلم رجلا . فأرعد من هيبته فقال له هون عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد وكان

يجلس بين أصحابه مختلطا بهم كأنه أحدهم فيأتى الغريب فلا يدرى أيهم هو حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلساً يعرفه الغريب فبنوا له دكانا من طين وكان يجلس عليه وقالت له عائشة رضى الله عنها كل جعلنى الله فداءك متكئا فانه أهون عليك قال فاصغى رأسه حتى كاد أن تصيب جبهته الأرض ثم قال بل آكل كما يأكل العبد واجلس كما يجلس العبد

القسم الثانى

تحليل الأخلاق والأمور النفسية

التربية الجسمية

لقد أفضنا فيما سلف فى اثبات النفس ، وابنا كيف باينت الجسم وأن جوهرها أشرف وأعلى وأجل وأغلى . فلنبين فى هذا الفصل امتزاجها بالجسم وعلاقة أحدهما وظهور آثار فعله فيه حتى عسر التمييز بينهما ، ودق الفارق على الناظر الحاذق ، فتشابها وتشاكل الأمر حتى ضرب بهما الشاعر مثلا لتزاوج المعنى بالكلم فى قوله

وكم معنى بديع تحت لفظ هناك مزاوج كل ازدواج
كراح فى زجاج أو كروح سرت فى جسم معتدل المزاج

ولم يقف أمد تزاوجهما وتعسر التمييز بينهما على خيال الشعراء ، بل تخطى الى أفكار الحكماء فتفرقوا طرائق وكل حزب بما لديهم فرحون ففريق أهمل أمر الجسم وعكف على إصلاح النفس وقال ما الانسان إلا نفسه فهى القوامة عليه المدبرة له الحافظة لشكله ، الساعية لتنميته تدبر أحشاءه وتغذى أعضاءه وتتولى شأنه وإن هو إلا عناصر مؤلفة وعما قليل يلحقها الردى ويعروها البلى ولقد يموت المرء بكلمة تؤذيه ويفرح ويبش بخبر يسره ويرضيه فالجسم وجوده عدم .

وأخرون نبذوا الروح وراءهم ظهرياً كأنهم لا يعيشون ، واتبعوا فى سيرهم أمر جسمهم وقالوا ما الانسان إلا الجسم وما الروح إلاعرض من أعراضه كسواده و بياضه ولئن لحقه مرض أو ألم به ألم أو نقص أو تلف تعدى للنفس أثره فهو حاملها وحافظها بل جوهر عرضها

وجاء قوم آخرون وهم المستبصرون وقالوا بالجوهرين وآمنوا بالزوجين وجمعوا بين الدليلين ونظروا بالعينين فلم يغمطوا الروح حقها ولم يسلبوا الأجسام حظها. بل راعوا الجانبين وتربصوا الحسنيين ونظموا إدارة الجسم كما أداروا مملكة الروح (و إنا لذلك مختارون)

لذلك نظمنا جوهر الجسم فى سمط عقد الأخلاق لئلا نبخسه حقه فلايقولن امرؤ انى اذا هذبت نفسى وجعلتها عنوان درسى كفانى ذلك فى التهذيب .

إلا أن له أثراً في نفوسنا وسلطاناً فى عقولنا ألا ترى أن المرضى أسوأ الناس أخلاقاً وأن للأغذية والماء والأجواء المدة لأجسامنا آثار اتصل لنفوسنا كالقبض والبسط والفرح والحزن فانها إذا كانت رديئة وصل للجسم انحراف على مقدار رداءتها و إن كانت صالحة فالصلاح إليه واصل و إليه وارد . سر فى نظام جسمك على قانون الصحة يعتدل مزاجك وتصف روحك . فلعمرك ما العلوم التى بها جلب الغذاء من صناعة وتجارة وزراعة . ولا نسلك الذى ترجو به بقاء ذكرك وظهور أثرك بنوع ما ولا نظام أمتك فى اجتماعها وسياستها إلا بعد حفظ صحة جسمك و إدارة نظام هيكلك فى الرتبة . وما الأموال المجموعة ولا الاخوان المحبوبة بمغنية عن المريض شيئاً . و إنما ذلك لمدده و إصلاحه . فلا وربك لاأمة إلامن الأسرات و إنما الاسرات مركبة من أفراد فاذا اعتلت الأجسام فلا اجتماع ولا ائتلاف ولا أخلاق ولا آداب ، تهذيب النفس شرع لتجاذب القلوب . وتحاب النفوس وائتلاف الأفراد . ونظام الجمعية وتعاونهم أجمعين ، فالتهذيب مؤخر فى وجوده عن وجود الأفراد والأفراد قوامها الصحة

و إياك أن يلج فى خاطرك غرابة الكلام على صحة الأجسام فى علم الأخلاق أو تقول نتركه لعلم قانون الصحة فانك عرفت قبلا علاقتهما وآثار أحدهما فى الآخر فلئن ذكره الأطباء فانما ذلك لأنه مقصود فى علمهم بالذات والنفس تبع

فأما علماء الاخلاق فانهم يبحثون عنه كمركب للنفس وسفينتها السائرة فى بحر الحياة اللجي ودابتها التى تركبها فالجسم فرس . والنفس راكبها والسعادة قنيصتها ولا قنيصة لمن كانت فرسه . كما لا سعادة ولا أخلاق لمن ضعف جسمه إلامن رحم ربك . ولقد أودع الله فى فطرة الانسان من الغرائز والمشاعر والادراكات وإحاطه بالمنذرات للتهلكة ما أن عمل به وسار فى سبيله بنظام هدي الى طريق رشاده . ألا ترى إلى الحر والقر والجوع والعطش وما جبل عليه الأطفال من حب اللعب وتنشيط الأعضاء بالحركة ومصادمة الأجسام ومقارعة الابطال . أن كل ذلك إلا مرشد للعاطلين . كم من امرىء جهل أمره واستسهل الأمر اليسير من شأنه كاللقمة يزدردها بلا كثير مضغ والحجرة يسكنها رديئة الهواء أو ضئيلة النور والبيت يقطنه تحيط به الروائح الكريهة فأحاطت به خطوب الزمان ومزعجات الأمراض أو لم يعلم ما للاسنان من الحكمة وما لآلام الحر والبرد من الانذار والاعلام . إلا أن الغفلة عن الصغائر فى أمور الأجسام تجر إلى الكبائر فى أمر النفوس والعقول . فكم يحدث فساد الصحة من تغير فى طباع المرء كسرعة الغضب والتهيج المزرى ويقعد به عن تأدية الواجبات الاجتماعية

المرض إذا حل بالجسم فزال أبقى له أثراً خالداً فيه حتى يحين أجله ويذهب عمره

لابد من إرادة قوية يصد بها الشهوات البهيمية وعزم صارم يكبح به تلك الضاريات الهائجة حتى لا نشترى الذى هو أدنى من اللذات الخسيسة بالذى هو أعلى من الصحة وسعادة الحياة والفرح بالاخوان وبهجة الجمعية القومية ونعيم العباد فى البلاد

فاعتدل فى مأكلك ومشربك وملبسك ومسكنك ونومك ويقظتك واجعل

لكل وقتاً خاصاً به ، ونظم أوقات أكلك كما نظمت الأفلاك فى سيرها والنجوم فى جريها والشمس فى أبراجها وأقلل من الشرب وحرمه بعد انقضاء الأكل حتى يهضم الطعام واجعل لك وقتاً للرياضة الجسمية كالمشى والأعمال الزراعية أو الصناعية فى أوقات عطلتك ليكون أجم نشاطاً لعقلك وأتم قوة لجسمك وكالحركات الرياضية فى المدرسة فلعمرك أنها تحرك من نشاطك وأنها تفتح لك شهوة الطعام

إلا أن المستبصر الحاذق من سار على منهج قانون الصحة فقل مرضه فذلك خير ممن يهمل الجسم فيقع فى قبضة المرض فيضطره لتماطى الدواء فالخير كل الخير فى تدبير الطعام والشراب فى الصحة

وقد أثنى الله على بعض عباده الاصحاء العلماء فقال (وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء)

قوى الانسان الثلاث الشهوية والغضبية والفكرية

لقد بان لك ما يجب من أمر العناية بأمر الروح والجسم وامتزاجهما وعلاقة كل بالآخر فى الفصل السابق ولكنا لم نتجاوز فيه الاجمال فى البيان ولم نتعد الدائرة المحدودة البراهين المنظومة لكل منهما بالايجاز . لقد عقدنا هذا الفصل لتبيان قوى الانسان الثلاث لتستبين السبيل و يتميز الرشد فى الأعمال الانسانية من الغى فى الضلالة الحيوانية فنقول :

(١) أنت تعلم ان الأنسان يتنفس بالهواء الداخل فى رئتيه الخارج مهما كما يتنفس النبات بأوراقه والحيوان برئتيه أو خيشومه وغيرهما وهو يتغذى بأنواع النبات ولحوم الحيوان والماء كما يتغذى الحيوان بها والنبات بالعناصر الأرضية وهو ينمو كما ينموان و يكبر كما يكبران وتنتظم اعضاؤه وحواسه بتناسب واتقان كما ينتظمان و يلد و يموت كما يلدان . ذلك كله وما شاكله من خواص القوة الشهوية لذلك جبل الله عز وجل الانسان والحيوان على حب الحياة وحفظ الأجسام

لتصل إلى غايتها وتقوم بأعمالها التى خلقت لها جاهدة أبداً أن تستزيد وتستكثر من الأغذية التى تحفظ جسمانها وتدخل فيها بدل ماحللته الحرارة الغريزية والحركة الحيوانية ليبقى قوامها إلى حين . فطغى بعضها على بعض فى التغالب على الأقوات الصالحة المشتركة فأودع فيها قوة بها تدفع الصائل وتكبح جماح المعتدى على الأقوات والأجسام وأنبت لها القرون الصلبة والأنياب الحادة والمخالب الجارحة فى الحيوان ومهد السبيل لصهر الحديد والرصاص وغيرها لصنع السيف والرمح والمدافع والأساطيل الهوائية والبرية والبحرية للانسان

(٢) وتلك هى القوة الغضبية وهى أتم ظهوراً فى السباع والوحوش

(٣) ولما كانت القوتان فى الحيوان والانسان تتجاوزان الحد فى خصائصهما لو تركتا وشأنهما . وضع الله فى الحيوان غرائز تحفظ نظامهما فيه كما قال تعالى (قالَ رَبُّنَا الذى أعطَى كلَّ شيءٍ خَلقَهُ ثم هدى) وقال (ومامِن دابةٍ فى الأرض ولا طائرٍ يَطيرُ بجناحَيه إلا أُمَمٌ أمثالُكم) وقال (والذى قَدَّرَ فهَدَى) وتلك الغرائز توقف كل واحدة على العمل الذى جبلت أن توفيه . وخص الانسان بقوة يكبح بها زمام الشهوات الهائجة ويُطفِىء نيرانَ الغَضَبِ المتأجِّجةَ ليستقيم أمرهُ إلى أجل مسمى قال تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفسَ عن الهوى فان الجنةَ هى المأوى) وتلك هى القوة الفكرية

نتيجة

(٤) نتج مما قدمنالك أن للانسان ثلاث قوات الشهوية والغضبية والفكرية وكل واحدة أفضل مما قبلها وأخس مما بعدها ألا ترى أن الغضبية لها السيطرة والقهر على الشهوية . والفكرية تحكم الأوليين لتقفهما عند حدهما فلها الرأى الأعلى والفضل المبين

منشأ الأخلاق

(٥) هذه القوى منشأ سائر الأخلاق الخسيسة والشريفة والوضيعة والرفيعة والمفضولة والفاضلة فمن اعتدل فيهن فهو من الأخيار ومن جاوز الحد وطغى فهو من الأشرار

لذلك أرسل الله الانبياء وألهم الحكماء وعلم العلماء وألف المؤلفون وفصل الكتاب المنشئون وسيرد عليك إن شاء الله من ذلك فى هذا الكتاب ما تقر به عينك ويثلج صدرك مع القارئين

إيضاح بأربعة امثلة

(٦) إنى أشعر أن صورة البيان فى هذا المقام غير جلية فلنقرب الأمثال عسى أن يتضح النهج وتتبين السبيل

تمثيل الأنسان بصائد وفرسه وكلبه

(١) إن مثل الانسان فى هذه الحياة كمثل فارس وفرسه وكلب صيده فالفرس مثال القوة الشهوية والكلب مثال القوة الغضبية والفارس مثال القوة الفكرية والقنيصة هى السعادة فى الدنيا والآخرة . إلا لا قنيصة لمن جمحت فرسه فلم يكبح جماحها ولا لمن لم يعلم كلبه آداب الصيد فى الفلوات واقتناص الحيوان فى الغابات فان لم يروض كلبه على الأقدام والاحجام فى أوقاتها ولم يسس فرسه فى سيرها رجع من صيده بخفى حنين هكذا شأن الانسان فى الحياة

تمثيل الانسان بقصر

(٢) تصور قصرا مبنيا له ثلاث طبقات طبقة سفلى وفيها العملة والفلاحون والصناع والطحانون والخبازون وسائر العاملين وطبقة وسطى فيها الجند المدربون

والمقسمون العادلون الذين يتلقون ما وصل لهم من أعمال الطبقة السفلى ويقسمونه بقدر معلوم وعمل منظوم على سائر سكان القصر الأعلين والأسفلين . وطبقة عليا فيها الملك والوزراء والكتاب والمترجمون وأرباب الدولة ولهم القول الفصل والمقام الأعلى والكلمة النافذة والسطوة التامة على القصر ومن فيه . ذلك مثل الانسان فالسفلى المعدة والأمعاء والكبد فهن مقر الشهوة لطبخ الغذاء وانضاج الطعام . والوسطى هى الصدر وفيه القلب الموزع للدم بنظام على الأعضاء . وكل له مقام معلوم . وعند الغضب يغلى الدم وتحمر الأعين ويهيج الأنسان والعليا الرأس والعقل وقوة الحواس الخمس واللسان وهو الترجمان . فانظر كيف رُتّبت القوى الثلاث ترتيباً طبيعيا فى جسمك . فويل لمن عاش ومات وهو بها جهول . وويل لمن حرم العلم بها ودس نفسه بين الجهال الغافلين . إلا وأن ذلك هو الفارق بينك و بين الحيوان

ففز بعلم ولا تطلب به بدلا　　الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقدر كل امرىء ما كان يحسنه　　والجاهلون لأهل العلم أعداء

تمثيل الانسان بحكومة نظامية

(٣) إن الحكومات النظامية لامناص لها من دواوين لهندسة الطرق ونظام ارواء الأرض وللزراعة وقوانين للتجارة ولخزائن المال . إن هذه تقابل القوة الشهوية فى الأنسان فهذه لجلب الطعام وتلك لغذاء الأجسام ولا سبيل لحفظ الأموال المجموعة وطوائف الناس المتعاونة والمزارع المروية و الأدوات المصنوعة إلا بالشرطة والجنود والقضاة العادلين والعساكر المدربة والأسلحة النارية . ذلك فى الممالك النظامية يقابل الغضب فى الأجسام الانسانية

فأما الملوك والأمراء والنواب والوزراء فانهم يضاهئون القوة العقلية ولواحقها من قوى الانسان

تمثيل قوى الانسان بماء النيل وسدوده

(٤) لقد شاهدت نهر النيل ومجراه يبتدىء من جبال القمر وينتهى إلى البحر الرومى . ولولا أن الحواجز تصده والسدود تمنعه والقناطر تحفظه ما أدى للناس عملا إلا قليلا ولا منح بلادنا زرعاً إلا الأعشاب والاتلاف وشوك القتاد . النيل مثل القوة الشهوية.والحواجز الصناعية مثل القوة الغضبية والمهندسون مثل القوة العقلية وما ترى فى البلاد من المزارع النضرات والأعشاب الخضرات والمروج الواسعات وجنات النخيل والأعناب والرمان والحب ذى العصف والريحان يقابل الفضائل الأنسانية إذا قهرنا الشهوات ونظمنا الحركات ووزنا الرغبات بموازين العقول بحيث نردع النفس إذا طمحت لازدياد الطعام أو التمادى فى الخصام أوالتهاون عند الأمور العظام والأحجام أو النكوص على الأعقاب فى الأمور الجسام ، أو جنحت لاقتراف الآثام

لطيفة

بينما أنا أكتب هذا إذ مرت أمامى امرأة يتبعها كلب يحمل فى فمه متاعاً كبيراً فى صرة فأردت أن أضربها مثلا للقوة العاقلة الانسانية اذا أدبت القوة الغضبية فأمنت غوائلها ونالت خيرها.إلا إنما مثل الشهوات مثل النار تنضج الطعام بحرارتها وتضيء السبل بضوئها ونأمن تدميرها المنازل و إحراقها البلاد بالصناعات الانسانية والتدبير بالعقول والأعمال المدنية

حكم هذه القوى وضرر التفريط والافراط وعجائب التدبير الألهى فيها والآيات المشاهدة على ذلك

إلا لتعجب من تدبير نفسك وأحكام جسمك و بديع نظمك انظر كيف جعلت هذا الغرائز فينا لحياتنا ولبقائنا . غريزة حب الطعام والشراب لحياة أجسامنا وقوة الغضب لحفظها والعقل منظم ومدبر ومؤدب فالشهوة والغضب ركبتا فينا

لحياتنا وحفظنا إذا أخضعتا للعقول وسارتا على ناموسها الموسوم. فإياك أن تطلق العنان لفرس الشهوة و إياك ثم إياك أن تذر أسد غضبك يسطو بلا مشورة العقل و إلا كان مثلها فى ذلك مثل ماء النيل فيما مر إذا جرى بلا سد يمسكه ولا عرم يحفظه فنبت فى أرض جسمك شوك الأخلاق وقتاد الفساد بدل جنات العلم وروضات الفضائل وتجنى مر الثمر من شجرات الأخلاق الرديئة بدل ثمرات السعادة تجنيها من شجرات الأخلاق والأعمال الجميلة العالية

فمن شره فى الطعام أوتمادى فى الخصام أوقاتل الأعداء بلاروية قيل أن ذلك منه إفراط وأما من جمدت قريحته و بردت طبيعته وسكنت شهوته وقلت حميته بحيث لا يتعاطى من الطعام ما يغذيه ولا يبالى بانتهاك عرضه وضياع مجده وذهاب شرفه وعز بلاده فذلك منه تفريط وكل من التفريط والافراط مذموم فالطرفان مذمومان

(حب التناهى شطط خير الأمور الوسط)

ولما خلق الله الماء والنار لحياتنا و إصلاح شؤوننا و بهما هلاكنا إذا ألقينا بأنفسنا فيهما هكذا كانت هذه الشهوات مقصودة من الحكيم العليم اللطيف لحياتنا و بقائنا ، فاذا انغمسنا فيها أهلكتنا هلاكا أبديا وأورثتنا الخسار فى الدارين ، ولما كان الماء والنار حسيين كان الوقوع فيهما موجبا لهلاك الأجسام والقوتان الشهوية والغضبية معنويتان ، فالانغماس فيهما والدخول فى غمارهما يورث الهلاك المعنوى والموت الأبدى جزاء وفاقا صدقا وعدلا من الحكيم العليم وللأول يشير قوله تعالى (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشهوات من النساء والبنينَ والقناطيرِ المُقَنْطَرَةِ من الذهبِ والفضةِ والخيلِ المُسَوَّمَةِ والأنعامِ وَالحرثِ وأشار لكبح جماح النفس بقوله فيها (ذَلِكَ مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ ٱلْمَآبِ) وأكد ذلك بذم المنغمسين فى الشهوات بقوله (وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلأَنْعَامُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ) و بقوله (ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ ٱلأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) و بقوله (إِنَّ ٱلإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ ٱسْتَغْنَى) وأشار إلى الوسط بقوله

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً)

« بيان ان لكل شيء كمالاً ، وكماله فيما هو خاص به دون سواه ، وان شرف الانسان وسعادته فيما امتاز به من القوة الفكرية »

تبيّن مما مر ان لكل واحد من العوالم العلوية والسفلية خاصة ، لا يشاركه فيها سواه ، وبهما شرفه ، وعليها يدور محور فخره وفضله ، وان لم يصل لكماله ونقص عن درجة تمامه ، تنزل إلى الدرجة الدنيا ، وانحط إلى الدركات السفلى ، ألا ترى أن الحصان إذا لم يحسن الكرّ والفرّ والاقبال والادبار ، تنزل من درجة الصافنات الجياد ، إلى رتبة الحمير ، فاستحق الأكاف وحمل السماد ، وكذا النخلة المثمرة إذا ما أفل نجم سعدها وأدبرت أيام إثمارها ، تدلت إلى رتبة الأعشاب وتنزلت إلى درجة الأعواد ، فأصبحت للنار وقوداً ، وللزرع سماداً. ذلك لأن فضلها فى الأزهار وكمالها فى الأثمار ، وهكذا كل شيء له خاصة لا شرف له إلا بها

إذا فهمت هاتين المقدمتين فانظر هذا الانسان أليست القوة الشهوية عامة فيه وفى الحيوان والنبات والقوة الغضبية واضحة جلية فيه وفى السباع والآساد فهما لايخصانه فليس بهما شرفه كما لاشرف للنخلة بالوقود ولا للحصان فى الاكاف وحمل السماد لما شاركهما فى الخصلتين الصفصاف والحمار كما شارك الانسان فى الشهوة والغضب الحيوان فنتج ان شرف الانسان فى كماله وهو ما امتاز به عن سائر العوالم من التمييز والفكر والمنطق والنظر

فويل لمن بطلت شهوته والويل والثبور لمن أحاطت به خطيئته

بالعقل والتمييز والروية سعادة الانسان وشرفه وفضله وله ضرب الله المثل فقال (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

نتائج القوى الفكرية والغضبية والشهوية

ومضارها بالزيادة والنقصان ومنافعها بوزنها بالميزان

قد علمت بما سلف ان الله عز وجل لم يذرأ فينا غريزة ولم يفطرنا على وجدان إلا لحكمة صادقة ونما ومنفعة تؤتينا فالشهوة الحيوانية والغضب السبعى والفكر الانسانى أودعها الله فينا للخير والمنفعة والحياة والسعادة فى الدنيا والآخرة وماالشرور النواتج عنهن أو احداهن إلا للميل عن الجادة والزيغ عن الصراط المستقيم والتنكب عن سواء السبيل كما قال تعالى (وَوَضَعَ المِيزَانَ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي المِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا المِيزَانَ) يقول انه أسس العالم وأحكم النظام وأقام العدل على أساس متين وقانون مسنون وحد محدود لتسوسوا أعمالكم وتزنوا أقوالكم على سنن أعماله وقانون نظامه فلا تطغوا فى وزنها فتتجاوزوا حدودها ولا تفرطوا فيها وتنقصوها فتضلوا عن السبيل وتحسبون انكم مهتدون

ولقد علمت مما مر فى المثل السابقة كيف كان العمال فى أسفل طبقات الأجسام ومما فيها المعدة والكبد ونظام توزيع الأغدية الدموية على الأعضاء الجسمية فى الطبقة الوسطى وبها القلب ثم كيف كانت القوة الفكرية فى الطبقة العليا ومن هذا نفهم قول القدماء مسكن القوة المغذية الكبد ومحل الحيوانية السبعية القلب ومكان الفكرية الدماغ

نظام عجيب وترتيب غريب

نظمت القوى الثلاث فى أجسامنا ورتبت ترتيباً حسناً جميلا لتسلط العقل على الشهوتين لرفعة مكانه وشرف مكانته على الاثنين وتخضع الشهوة للغضب حتى لا تقع فى العطب

اعتدال القوة الشهوية وخروجها عن الاعتدال

فمن ذا الذى توغل فى طمعه وخرج عن اعتدال شهوته الى الاستكثار والافراط إلا حقت عليه كلمته وأحاطت به حسرته فوصم بالحرص على الأموال والاكباب على الشهوات فأمسكها فسمى « بخيلا » وأولع بها فكان « حريصاً » « وشرهاً » « وخائناً » وانغمس فى المحرمات فسمى « فاجراً » وقد يطلق العنان للسان ولا يكبحه عن المقال فسمى ذا « مجون » وقد يفشى السر للحرص على الشهوة وقد يستخفه الجهل فيوحى إليه أنه أحق بالاختصاص وأولى بالتنعم بلذتها ولا حق فيها لسواه فلا يشاركه أحد من خلق الله فاذا أنعم الله على عبده نعمة ساءته وإن مسه الشر ونزل به الضيم شمت بأخيه وفرح بالشر الذى يرديه فساء مثلا الجهول الشامت ، فأما إذا قصر فى شهوته وأماتها بجهالته فأقل الطعام والشراب حتى أعياه الكلال وساءت منه الحال فضعف عن الأعمال وباء بالوبال فذلك باللوم فى تفريطه كالذى قبله فى افراطه

لقد تعالى البراهمة والبوذيون من أهل الصين والهند فى تهذيب النفوس حتى عمدوا إلى الأجسام فأضعفوها وإلى الشهوات فأماتوها وأفرط الملحدون فى الشهوات وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وكلاهما فى عمله مذموم

أما نحن فانا مأمورون بالتوسل فى سائر أحوالنا كما عليه أكابر الحكماء وأوصى به القرآن فقال تعالى (يا بَنِى آدمَ خُذُوا زِينَتَكم عندَ كلِّ مسجدٍ وكلوا واشرَبوا ولا تُسْرِفوا إنه لا يُحبُّ المسْرفينَ) ذلك لأنهم يأكلون كما تأكل الأنعام فلا يحفلون بالجمعية الانسانية ولا الاخوان فى الوطنية والدينية أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون

وأما أولئك المقامرون الذين تخربت بيوتهم والخائنون الذين قبحت سيرتهم والظالمون الذين تداعى مجدهم إلا من نفوسهم الشهوية وإفراطهم فى الغريزة النباتية

فتش بعقلك فى بلادك وانظر بثاقب فكرك فى أمتك المصرية وما دهمها من ذهاب ثروتها المالية. أليس ذلك إلا كان لنقص التربية المنزلية والجهل المزرى بالأحوال الانسانية

رحماك اللهم فقد حاد أبناء بلادنا عن صراطك المستقيم فى قوتهم الشهوية فرهن عقارهم وضاعت أملاكهم و باءوا بالخزى المبين

ولو أنهم علموا أن الافراط فى الشهوات ليس من السعادة فى شيء وأنه التوسط والاعتدال سعادة وخير وأبقى ما ارتطمنا فى أحوالنا ولا وقعنا فى شر أعمالنا ولو سألتهم ماذا على ذلك حملكم لقالوا مناظرة الاقران ومجاملة الاخوان ومرضاة النسوان وليقال فلان وفلان

اللهم ما أهلك الناس إلا الناس أولئك الذين ليس لهم إلا الخزى فى الحياة الدنيا بضياع ثروتهم ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون

مقصود الشهوة بقاء الأجسام و بئست اللذات فما وراءها إلا السقام وذهاب البلاد

الشهوة نار من دخلها احترق ومن استخدمها فى المنافع الشريفة كان حقيقاً بالمنفعة

ومن اعتدل فى الشهوات الطبيعية وضبط نفسه عن الشهوات القبيحة وتجاوز الاسراف ثم رضى بما سهل وجوده وترك « الحرص » على الفائت فاتسم بالقناعة وأمسك لسانه عن اذاعة الاسرار فوصف « بكتمان السر » وتباعد عما يوجب التهمة فى ارتكاب الفواحش فوسم « بالنزاهة » و بذل المال بغير سؤال لمستحقه بلا تبذير فكان « ذا سخاء » فيحفظ نفسه و يمنع جوارحه عن إتيان القبيح حذراً من اللوم وخوفاً من العتاب فيسمى « ذا حياء » فاذا ساورته الشهوة وغالبته الطبيعة فقهرها سمى ورعا وصابراً. ولكون نفسه عند حركة الشهوات يسمى ذا دعة فان كمل نفسه بالزينة الحسنة فذلك « حسن السمت » واذا تحفظ من قبيح المنزل قولا وفعلا و بعد عن الدناءة سمى ذا « صيانة » فان سكنت نفسه وثبتت

عن الحركة الزائدة سمى «وقوراً» فاذا كسب المال من وجهه ومال إلى محاسن الأمور سمى «حراً» فان مال إلى حسن تقدير الأمور سمى ذا «انتظام»

تطبيق على القوة الشهوية

وهى خمس نصائح وحكاية

(١) أيها الطالب أدر نظرك فيما حولك وحوّل وجهك تلقاء أمتك المصرية وقل لهم ماهذا الدمار وما ذلك العار اللاحق بالبلاد والخسار الضارب أطنابه على العباد مالكم تنفقون مالا تحتاجون ، وتغرمون مالا تطيقون ، حتى أضعتم التالد وأبدتم الطارف ، وسلبتم مجدكم وأبحتم أرضكم يقول الله (وَيأْكُلُونَ كَمَا تأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مثْوًى لهمْ)

أو ماعلمتم أن شهوة الطعام عامة بيننا وبين الأنعام ، ولقد عاشَ بها النباتُ قبل الحيوان وتمتع بها الهر والخنزير قبل الانسان ، كما قال (إنمَا مَثَلُ الحيَاةِ الدنيا كمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأرضِ مِمَّا يأْكُلُ النَّاسُ وَالأنْعامُ حَتَّى إذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زخْرُفَها وازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لم تَغْنَ بالأمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يتفكَّرُون)

(٢) ولئن سألتهم مالكم تغاليتم فى المطاعم وتكاثرتم فى الموائد واستجدتم ألوان الطعام واستكثرتموها وتماديتم فى تلك الشهوات وخدمتموها ليقولنّ إنما ذلك ثمرة الغنى الوفير . والمال الكثير . وإذا لم تملأ الصحون حتى تمد البطون فما الفائدة فى المال وأى عائدة من سعة الحال ؟

الا إنما ذلك مضرة للأبدان وضياع للمال فهلا سلكتم أشرف الطرق واتخذتم أقرب الوسائل إلى العزة القعساء والهمة العلياء . ببذل مافضل عن حاجتكم فى سعادة بلادكم وفخر أمتكم ببناء المدارس وتشييد الكليات وتعميم التعليم !

(٣) قل لهم مالكم تقامرون وتشربون الخمور وذكرهم بما قاله (هنرى)

الفرنسى المؤلف لكتاب خواطر وسوانح فى الاسلام أن السلاح الوحيد الذى اتخذه الناس لابادة الجنس الشرقى إنما هو الخمر ! !

وقد قرر الأطباء أن خصلتين يرثهما الأبناء عن الآباء و يبقيان صفة راسخة فى الأجيال والأعقاب إن اختفت فى جيل ظهرت فى جيل آخر و إن أخطأت أبا لم تذر بنيه . إلا إنما هما ادمان الخمور والداء الافرنجى الناجم من الفجور، فإذا فشا أحدهما فى أمة أضعف الذرية وأباد البقية

أيها الطالب قل لهم لمَ تقامرون حتى أضعتمْ الدار و بعتم العقار وسكنتم بالايجار!

(٤) أيها الطالب قل لهم ماهذا التفانى فى الملابس والتنافس فى الحبرَ والبراقع والقلانس وما هذا الترف بالدمقس والحرير، الانسان مهما بالغ فى الترقيش والتزيين لا يبلغ شأو الطاووس فى جماله

قل لهم مالى أراكم أثاقلتم إلى الأرض . ورضيتم بالحياة الحيوانية ولم تفهموا معنى الأنسانية . أن للانسانية لذة يجهلها الأغبياء ، وسعادة لا يعرفها إلا من ذاقها من الأذكياء

وكيف استتبع بعضكم بعضاً فى صرف الأموال على البغايا والدنايا . أوماعلمتم أن ذلك هلاك الأبد وضياع البلد .

إلا أن اسراف الأغنياء والأمراء وفجور ذوى النفوذ والجاه ممن تولوا أمر العباد يدعو إلى تقليد العامة والغوغاء ، وعمد البلاد والدهماء فتتدهور الأمة إلى أسفل سافلين وتصير طعمة الآكلين قال تعالى (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا)

(٥) أيها الطالب قل لهم لاتتغالوا فى المهور ولا تضيعوا الأموال فى الولائم ، إلا إذا راجت صناعتكم وحفظ فى بلادكم درهمكم

(إنما الحياةُ الدُّنيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فى الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ

مُصفَرًّا ثُمَّ يَكونُ حُطَامًا وَفى الآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ)

سيقولون إنما أردنا مجدها المنتظر وفخرها العظيم. قل لهم هلا بنيتم المجد على أساس ؟ وتباعدتم عن هذا الوسواس ؟

هلا شيدتم معاهد العلوم فشكر الله والناس سعيكم وشادوا فى الخافقين ذكركم هذه فكرة العامة والنسوان ، وصغار الأطفال ، يزينها الجهال ، ثم تخبو نارها وينطفىء نورها كشعلة نار تشتعل ، فتغيب عن الأبصار (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فانَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ) كمال الانسان وسعادته فى ذات نفسه ، وفى خلقه ، وعلمه ، وعمله ، وما عداه فاعمال الأطفال وصغار الرجال

حكاية

حكي أن شاباً ركب حصاناً واختال بزهوه وأعجب بفرسه وتكبر على الاقران وتباهى به على الأخوان فقابله حكيم فقال ياهذا كمال كل شيء فيما به اختصاصه لايشاركه سواه ولئن كان الكمال فى الحصان فالفخر راجع إليه والثناء وارد عليه فأما أنت فانك خلي من الكمال مبرأ من المدح والثناء .

أتمدح على شرف سواك وتوصف بما به سعد الحصان وامتاز به على الأقران فلكل شيء شرف وشرف الانسان عقله وفضله المبين

قل للمتعلمين مابالكم منغمسين فى الحيوانية ضاربين الذكر صفحاً عن كمال النفس الانسانية ، انطلقتم إلى الغرب وما آب بعضكم إلا بأحقر الأخلاق ، وأدنى الرذائل ، هلا نهجتم منهج عظمائكم وسلكتم سبيل حكمائهم ، فالويل للبلاد إن لم تصونوا شهواتكم ، والعذاب واقع ، ماله دافع ، إن أصررتم على العناد ولم تسلكوا سبيل السداد

فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ

بِغَيْرِ هُدى من الله إن الله لاَ يَهدى القوم الظالمين)

فَارْتَقِبْهم وَاصْطَبِرْ ، وانذرهم يوم تقع الوقائع ، وتترك الديار بلاقع ، ويدهم البلاد من ذوى الأموال كل مغتال طامع

ويقال لهم على سبيل التمثيل (اليومَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُونِ بِمَا كُنتم تَسْتَكبرون فى الأرضِ بغيرِ الحقِّ وبما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ)

لطيفة

سألت رجلا من أذكياء الفلاحين رأيه فى المصريين وأى الجيلين خير أولئك الآباء الجهلاء الذين هم أرباب الأموال أم الأبناء المتعلمون فقال

نحن أكثر اقتصاداً ، وهم أقوى اتحاداً ، قد حفظنا الأموال وضيعوها ، ولو انهم جمعوا الخصلتين ، لنالوا الحسنيين ، ولـكنهم ذهب شرهم بخيرهم ونقصهم بفضلهم ، وأى أمة تقوم بلا مال ، وأى شجاع يقدم على القتال بلا سلاح

ولا مال للفاسق المخمور ، والأمة التى ذهب مالها ضاع رشدها فويل للمتعلمين المبذرين الذين كانوا فى الفجور منغمسين ، يوم يسحبون فى نار الخزى على وجوههم ويقال تبكيتاً لهم ذوقوا مسَّ عذاب الخزى فى هذه الحياة الدنيا والاذلال ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون (١)

فضائل القوة الغضبية ورذائلها

﴿ مسائل الباب ﴾

(١) عموم الشهوات فى نوع النبات والحيوان (٢) الغضبية خاصة بالحيوان

(٣) وجودها فى الانسان (٤) تمثيل بالقدر

لقد فرغنا من الكلام عن قوتنا الشهوية وها نحن الآن نفصل ما أجمل فى القوة الغضبية بعض التفصيل و إليك بيانه :

(١) مختصر هذا التطبيق هو احتقار الشهوات . الرجوع الى مجد الأمة القهار ومضرة الخمر والزنا للبدن . التغالى فى الملابس . الولائم حكاية . لطيفة

(١) علمت مما أسلفت لك ان قوة الشهوة مما به الغذاء والنمو والتوالد عامة فى البشر والحيوان والنبات ، ولو سألت الدود فى بطن الحيوان « المكروب » فى البعوض والقواقع والأصداف فى البحار لقالت هل من مزيد لشهواتنا ولذة حياتنا

(٢) فاذا تعاليت عن تلك الأنواع ، وترقيت إلى النمور والسباع ، الفيت هولا مهولا ، وقدرة وحولا ، وغضباً وصولا ، رأيت الأسود الكاسرة ، والسباع الضارية ، والبواشق المنشبة المخالب ، المحددة الأظفار ، المهيبة للأنظار ، ولعمرك ماذلك إلا آثار القوة الغضبية فى العوالم السبعية

(٣) واذا ترقيت إلى الانسان وشاهدت المدافع والسيوف ، والرماح فى الصفوف ، والأساطيل البحرية والجيوش البرية والسفن الحربية . والنيران المتأججة ، واحتدام وطيس الحروب وتخييم النُّوَبِ السّود ، فاعلم ان ذلك آثار القوة الغضبية . الانسان فى الغضب شريك الآساد والسباع . وما أحببنا فى العلو والسؤدد ولا رغبنا فى الملك والعظمة ، ولا تشوقنا للرياسة وتعالينا فى السياسة ، ولا تجشمنا المشاق واقتحمنا الصعاب ، إلا لما فينا من تلك القوة الأسدية .

(٤) أدخل حديقة الحيوان بالجيزة ، واقرأ القوة الشهوية فى حيواناتها وطيرها ، والقوة الغضبية فى نمورها وسباعها ، هناك تجشمت قوتا الانسان وظهرتا للعيان ، فهل بعد هذا بيان .

(٥) لعلك خامرك الريب من جهة التمثيل ، وظننت ان القوة الغضبية شر مستطير وضرر و بيل ، لما قارنا بها أنفسنا بالوحوش الكاسرة ، والسباع الضارية ولكن لتعلم أن هذه القوة خلقت فينا لرحمتنا ، وأودعت لاصلاحنا متى وجهت إلى الغاية الشريفة وسيقت إلى الأعمال العالية المنفعة وذلك أنها إذا اعتدلت فصاحبها بالشجاعة موصوف ، و بالفروسية وقوة القلب معروف ، واذا خرجت عن الاعتدال فإما إلى زيادة ضارة ، فصاحبها يوصف بالتهور ، وكثرة الغضب ، أو الى نقص شائن فصاحبها يوصف بالجبن وضعف النفس .

تمثيل القوة الشهوية مع القوة الغضبية

(٦) املأ قدراً بالماء ، وضعها على النار ، وراقبها أليس الماء يغلي ؟ ما دامت النار معتدلة ، فان تجاوزت النار الحد اضطرب أمر القدر ، واختل نظام العمل ، وإن ضعفت وشارفت الخمود ضعفت حركة الغليان ولم تصل لمقصودك ولم تنل من الماء مرغوبك .

هكذا قوة الغضب فينا ، فالنار تمثيل قوة الغضب ، والماء تمثيل قوة الشهوة واضطراب القدر تمثيل قوة التهور ، والشتم والتهيج العظيم ، وبطء حركة الغليان تمثيل قوة الجبن وخور العزيمة ، واعتدال النار وغليان القدر بنظام ، تمثيل لحال قوتنا الغضبية واتصافنا بالشجاعة والحلم والشهامة وما شاكلها .

تفصيل رذائل القوة الغضبية

« مسائل الباب »

« الافراط » طيش . حقد . تهور . قحة . حسد . شراسة . عجب . قساوة الكبر « التفريط » صغر الهمة . جبن . عبوس

ضع تمثيل القدر على النار للقوة الغضبية نصب عينيك وانظر الآلات البخارية من رافعة للماء وجارية للسفر وحاملة للأمتعة وعائمة في البحر ، أليس قدورها إذا طفت نيرانها ، وتأجج سعيرها حطمت من فيها وأغرقت وأهلكت راكبيها وإن خمد لهيبها وقلت نارها عن الحد المطلوب والدرج المعلوم قعدت بالراكبين عن السير ففاتهم المرغوب ونأت بهم عن درك المحبوب .

من ذهل من أدنى ضر فهو ذو طيش ، ومن أضمر الشر وهو لم يتمكن من الانتقام وأخفاه لحين الفرص فهو ذو حقد ، فان أقدم على ما لا ينبغي من الأمور فهو ذو قحة ، وإن كره ما أنعم الله به على عباده من الخير وتمنى إفساد حالهم فهو ذو حسد ، وإن كان لاينقاد إلى جميل القول ولا يفارقه القبيح فهو ذو شراسة

الْخُلُقِ ، و إن كان يرى أن كل شيء فى غيره دون محاسنه ، ولا يعلو على مناقبه فذلك ذو عُجْب و إن تهاون فى المصائب وما يصيب الناس من النوائب فهو ذو قساوة وأن ضعفت نفسه عن طلب المراتب وقصر أمله عن نيل المطالب والمعالى فهو الموصوف بصغرالهمة وأن جزع عند المخاوف وأحجم عند أدنى فزع فهو ذوجبن وأن قطب وجهه عند اللقاء وأظهر الكراهة وقل تبسمه فهوذو العبوس وأن استحسن فعله واستعظم نفسه واستصغر سواه فهو ذو الكبر . فأنت ترى أن مثل ضعف النفس والجزع عند المخاوف أشبه شيء بخمود نار القدر و بطء حركة الغليان وأن مثل الكبر وشراسة الخلق أشبه شيء بتأجج نارها واضطرب القدر على النار

فضائل القوة الغضبية

« الفضائل »

التوسط . الشجاعة . الحلم العفو . الرحمة . البشر . حسن الخلق . عظم الهمة . الانفة . الحمية . الغيرة . التثبت . تواضع . كرم النفس . نجدة . شهامة . تحمل الكد .

ومن تهاون بالآلام وتحمل المشاق عند الأقدام فهو ذو الشجاعة . ومن يترك الانتقام مع القدرة وجازى الإساءة بالإحسان فهو ذو الحلم والعفو . ومن جزع بالم يصيب المعطوب وأحس بود لذلك المنكوب فهو ذو الرحمة . ومن وضع على قُدَرِهِ المعنوية الغطاء وأظهر البشر لمن يلقاه وأقبل على محادثته فهو ذو بشر . ومن لقى الناس بما يسرهم من بشروقول حسن ووضع معروف ومواساة فهو حسن الخلق إلا انها خلة المرسلين والأنبياء والصالحين . ومن استصغر ما دون النهاية من معالى الأمور فهو عظيم الهمة . وهو إما ذو انفة وذلك بأن تنبو نفسه عن الأمور الدنيئة و إما ذو حمية ، يغضب عند الاحساس بالنقص ،و إما ذو غيرة وهى إظهار الغضب مما يخشى عاره ، ومن احتمل الآلام ولم يجزع من المصائب فهو ذو تثبت ، ومن ترك

المباهاة والعجب ، فهو ذو التواضع ، ومن اقتدر على حمل الكرامة فهو كريم النفس . ومن وثق بنفسه عند اقتحام المخاوف ، حتى لايخامرها جزع فهو ذو نجدة ومن حرص على الأعمال العظام ، توقعاً للذكر الجميل فهو ذو الشهامة . ومن استعمل البدن فى الأعمال الحسية وصبر على ذلك فهو المحتمل للكد ، الرفيع القدر ، فأنت ترى أمثال الشجاعة والحلم أشبه شىء بحال القدر عند غليانها ، بلا اضطراب ولا ضعف ، ألا ترى أن الاقدام فيما ينبغى وهو الشجاعة والسكون والعفو عمن ينبغى العفو عنه ، سلوك للسبيل الأقوم ، ولو أنا أقدمنا على عقاب الضعفاء ، أو الأقران عند القدرة ، أو تخلينا عن مصادمة الأعداء ، وقبلنا العار ولم نطلب عظائم الأمور ، لكنا خارجين عن السبيل الأقوم ، ولكنا أشبه بالقدر المضطربة فى الأولى ، أو البطيئة حركة الغليان فى الثانية ، وخير الأمور الوسط

تمرين على القوة الغضبية ونصائح

﴿ الخجل وحب المحمدة بلا عمل ﴾

أيها الطالب طالب أمتك واخوانك المصريين بالجد فى أعمالهم ، والاجتهاد فى حياتهم ، قل لهم دعوا الكسل وأقدموا على العمل ، واياكم والمرح ، فانبذوه ، واشغلوا أنفسكم بما يجب من الحقائق ، ودعوا الهزل بالجد فى طلب الفضائل . المجالس غاصة بالهزل والاستهزاء والتعيير والملاحاة ، و إذا رأيت أمرأ يخجل مما لايفعل او يحب أن يحمد بما لايفعل ، فاعلم أنهما جاهلان بأنفسهما ، فالأول فى طرف التفريط . والثانى فى طرف الافراط . أيها الطالب حافظ على شرف أمتك وعشيرتك وإخوانك فى المدرسة ، وسائر المتعلمين ومواطنيك ، ولا تقعد عن نصرهم وإظهار فضلهم ، وحفظ مقامهم ، واعلم أنهم ان ارتفعوا رفعوك وإن اتضعوا فأنك لاشك موضوع ضعيف

دواء الجبن

وإذا رأيت فى نفسك ضعفاً وخمولا وجزعاً ، وفرقاً فعامل نفسك بضد مافيها ، فان مالت إلى الكسل والخمول والجبن فألزمها بالأعمال ، وتجشم المشاق وتحمل الأخطار ، واركب السفن عند تلاطم أمواج البحر الخضم ، وقف فى موطن تتقاذف فيه المدافع ، وتتأجج فيه نيران البنادق ، وان آنست الطيش والغرور ، واستشاطة الغضب فأخمد نار ذلك بأن تتعمد احتمال أذى من يؤذيك مراراً وتكراراً حتى يصير ذلك ملكة فيك ثم اعتدل واستقم

تمثيل ونصائح لاستعمال القوة الشهوية والغضبية

﴿ ست نصائح ﴾

الحياة الدنيا بحر ونحن فيه مسافرون ، والموت الساحل ، والسفن أجسامنا ، وما أوتينا من صحة ومال وولد وسلطان شراع السفينة ، والقدر البخارية غضبنا والماء المتبخر شهواتنا وعقلنا هو المنظم للسفينة لتسير فى ذلك البحر المتلاطم

والسبيل للانتظام فى سيرك ، فى بحر حياتك ، أن تقهر القوة الشهوية بثلاثة أمور

(١) أن تجتنب مجالسة السفهاء والخلعاء ، والصبيان والنساء والأراذل

(٢) وأن تكثر مجالسة الزهاد وذوى الاجتهاد والورع

(٣) وأن تعدل شهوتك وتقصد جميل الأفعال . ثم تقهر القوة الغضبية بثلاثة أمور :

(١) أن تذكر من تؤذيه أن لو كان هو المؤذى هل كنت تختار ذلك أم كنت تنفر منه

(٢) وأن تتذكر طيش غيرك هل كنت ترضاه لنفسك ؟

(٣) أن تكسر سورة غضبك وتصرفها الى كسر القوة الشهوية

ولقد عير الله قوماً بتجاوز الحد فى القوة الغضبيه إذ قال على لسان بعض الأنبياء تقريعاً وتوبيخاً (وإذا بطَشْتُمْ بطَشْتُمْ جبّارين) وقال فى عتو عاد وكبريائها ، (وقالوا مَنْ أشدُّ منّا قوّة) وقال (ويَنْهَى عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ) ، وذم الطرف الأدنى من تلك القوة ، إذ قال فى غزوة تبوك (وقالوا لا تنفروا فى الحرِّ قل نارُ جهنمَ أشد حراً) وقال (اثاقلْتُمْ إلى الأرضِ أرَضيتم بالحياةِ الدُّنيا منَ الآخرَةِ) وعير قوماً إذ قال (قالوا ياموسى إنَّ فيها قوماً جبّارينَ وإنّا لنْ ندْخُلَهَا حتى يخرجوا منهافأن يخرجوا منها فانا داخلون الآية) فهذا وأمثاله تقبيح لرذيلة الجبن ، قاصمة الظهر ، ومدح التوسط فى تلك القوة ، إذ قال (أشدّاء على الكفار رُحَماءُ بينَهمْ) وقال (وإن جنَحُوا للسلم فاجْنَحْ لها وتوكل على الله إنه هو السميعُ العليم)

القوة الفكرية

هى القوة الثالثة للانسان ، وبها اختص من سائر الحيوان (على رأى) وهى تقوى بتدقيق النظر فى العلوم العقلية ، والبحث والتنقيب فيها ، والتدريج فى استعمال العادات الجميلة ، وترك ضدها ومداومة الاطلاع على كتب الاخلاق والسياسات والعمل بها

القول فى القوة الفكرية

(١) فضائلها ورذائلها

ضرب مثل لحكومة منظمة . ضرب مثل لحال المؤلف . حكاية تعداد الفضائل والرذائل للقوه الفكرية . تمرين عليها

(٢) ضرب مثل للعقل الانسانى بحكومة منظمه

تصور حكومة منظمة ذات خمس ممالك لكل منها رئيس وقيم يضبط حسابها ويجمع أموالها ويسلمها لمن بيدهم الحل والعقد فى العاصمة الكبرى والمجلس الأعلى

فاذا نظموا أحوالهم ورتبوا نظامهم وأتموا دفاترهم قدموها الى مفتش الديوان ، وهذا المفتش يجمع دفاترهم ويحصر صادرهم وواردهم ويرتبها فى أماكنها ، ويسلمها الى وكيل الديوان ، فاذا تسلمها وفرق وجمع ووصل وقطع ، وتأمل واستنتج أخذ صورة من نظامها ومجملا من مفصلها ، وحفظها فى خزائنها ونظمها فى أماكنها ثم انطلق الى الملك ، فأطلعه على ما نظمت يداه ، وما رتبه الرؤساء فى ديوانه وما نظمه أعيان أعوانه وهناك مجلس كبير وجمع عظيم ممن لهم علاقة كبرى ورابطة عظمى لاانفصام لها بسائر الممالك المعروض أعمالها المشهور أحوالها فيقدم الرئيس مالديه بين أيديهم ويعرض ما وراءه عليهم فيميزون الخطأ من الصواب ويديرون أمر الحساب ، ويرفعون ويخفضون ويذلون ويعزون فاذا فرغوا من نظراتهم وأتموا درس نظامهم ، أخذها ناظر الديوان فحكم بما هم آمرون وأبرم ما كانوا به يشيرون ذلك مثلنا فى حياتنا الدنيا — فأما الممالك الخمس : —

فأولها عالم المبصرات ، والأنوار والألوان والصور والأشكال ، والقرب والبعد وأمثالها ورئيسها حاسة البصر . وهى آلة النفس فى إدراك المبصرات . وثانيها عالم المسموعات من الأصوات والحروف ، ورئيسها آلة إدراكها وهى السمع .

وثالثها — المشمومات من الروائح الطيبة والخبيثة ، ورئيسها حاسة الشم . ورابعها حاسة اللمس ، تدرك أمثال النعومة والخشونة خامسها الذوق للمذاقة . فإذا حفظت هذه القوى ماجمعت ، ورسمت ماعليه اطلعت ، وضعتها جميعا فى خزائن النفس الإنسانية وأودعتها فى أماكنها ، ولست أدخلك أيها الطالب فى تفصيلها أو أطيل عليك فى تسميتها ، فانما نحن اليوم طلاب أخلاق ، وإنما أقول لك إيجازاً أن النفس إذا اطلعت على ماورد عليها من تلك الجهات فكرت فيه وأجالت النظر فيما لديها من تجربة وعلم وذكاء وفهم وجهل وحمق وخمود وقلق ثم ترفع منها صورة إلى أكبر قوة فيها وهى القوة المفكرة فتبرم ماقرت عليه الآراء من طيب وخبيث وجيد ورديء .

مثال من نفسى — ولأوضح لك هذا المقام بهذا المثال

اليوم يوم الخميس الثانى والعشرون من ذي القعدة سنة ٣٢٨ الرابع والعشرون من شهر نوفمبر سنة ١٩١٠ استيقظت فصليت فأفطرت فأمسكت القلم فطفقت أكتب هذا الدرس بدافع حب العمل والرغبة القوية فى الكتابة . إذا صائح يصيح من أعماق نفسى ، وهو منظم الأعمال فيها أحسست به يكلمنى بكلام نفسى بلا حرف ولا صوت يقول كيف ابتدأت فى العمل بعد الطعام ، وهلا أرحت نفسك ثم كتبت درسك وهل نسيت ماتعظ به الناس ، وتقول دعوا العمل بعد الغذاء والا حقت عليكم كلمة الداء ، إذا قائل من نفسى وهو داعى العمل يقول دع الأنذار والتخويف ، ولا تضيع العمل بالتسويف ، الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك فدع الملام وجانب الخصام .

فأما ما أنذرتنا به من الداء العضال ، لما فرطنا فى نظامنا وكتبنا عقب غدائنا ، فإنما ذلك فيمن ملأ بالطعام الوعاء ، فذلك هو المخصوص بالداء ، فأما من أكل لقيمات فما هو بمسئول . وعند ذلك ناداه منظم الأعمال يقول أيها الفاضل صه صه ألم تسمع خفقان القلب ، وسرعة ضرباته أقطع العمل ، حينئذ قمت مسرعاً ورميت بالقلم

فتعجب أيها الطالب كيف كانت أغراضنا وأحوالنا ورغباتنا تتخاصم وتتجادل كأنها مجلس منظم شورى متقن ، وكيف يغلب أقواها حجة أضعفها برهاناً ، وكيف يحكم الفكر الانسانى بما وضح له من الدلائل ، حتى انه لينقاد للشهوات المهلكة إذا دعت داعيتها وغلب سلطانها ، فالله عز وجل منحنا حرية التفكير ، ووكل لنا تربية أغراضنا ورغباتنا ، وأعطانا الفرص لنفكر وندبر ، ولعمرى أن هذه لعجب عجاب (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئًا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

أعمالنا الصادرة عنا نواتج تدبير أنفسنا ونظام قوانا النفسية فان غلبت قوى الخير فنحن الصالحون ، وان غلبت قوى الشر كان الفساد ، وتعجب ثم تعجب

كيف كانت الأمم فى مجالسها تتبع هذا القانون ، فان رقت أخلاقها والتأم جمعها كان الصلاح فى البلاد والعباد وان ساءت أخلاقهم وأدبرت نفوسهم غلب الشر على الخير وساءت الحال

والانسان مملكة ، وأى مملكة ، مملكة بديعة عجيبة

لذلك وجب علينا أن نبين فى هذا المقام ، قوانا العقلية التى يرجع لها الفكر عند السير فى أعمالنا فلقد تبين لك ان القوة المفكرة المنطقية فينا ليست حرة التصرف و إنما هى كرئيس الممالك النظامية يبرم مادبرته المجالس الشورية

فنحن أيها الطالب الذكى أسرى عاداتنا ، صرعى أخلاقنا فاذا قومناها فنحن المفلحون واذا تركناها ترعى فى مراتع الهلكة فالمفرطون هم الخاسرون

حكاية

قابلنى مرة طالب بالمدارس الثانوية يضع التبغ فى ورقة وهو يعرفنى ولا أعرفه فناديته فلبى فنهيته فقال لقد عزمت ثلاث سنين على تركه والشهوات تمنعنى وحكم العادة يقهرنى ولقد صممت اليوم صباحاً على تركه والانسلاخ من شره فوفت نفسى الأمارة بالتوبة ، وقالت لا بأس عليك فى هذه النوبة ، نقلت لو قويت إرادتك لزالت شهوتك ، واذا عصتك شهوتك فى صغرك فماذا عسى يكون أمرك إذا.وخطك الشيب ، وأدخلك فى يوم من الضعف عصيب ، فرمى ورقته وابتدأ توبته

حكاية اخرى

قابلنى منذ تسع عشرة سنة ، رجل غادر الحكومة بالاستغناء ولم يكن لى به سابق معرفة فقال فى خلال كلامه لقد كنت من عمال الحكومة فنبذتنى فأخذت أتسلى بابنة الكروم وتدرجت فيها حتى صارت عادة لازمة وملكة راسخة فأيقنت بالهلاك ، وكم صممت وعزمت وصليت وتضرعت ودعائى مردود وكلما لزمت كسر بيتى أرسل لى ندمائى يقولون وماذا يضرك من الخمر اليسير فأرجع لعادتى

وأتمادى فى بلوتى ولقد مضى لى أربع عشرة يوماً رجعت فيها عن عادتى وعسى الله ألا يرجع لى شقوتى

وكنت معه إذ ذاك وقت الظهيرة خلف قنطرة قصر النيل ثم انصرفنا وما أدرى مافعل الله به فهل تاب وأناب أم هوت به هاويته وصرعته غاشيته

لقد آن الأوان أن نبين لك أيها الطالب الذكى تلك القوى الفكرية عسى أن تصلح منها مافسد وتداوم على ماصلح فنقول : —

ان القوة العاقلة الفكرية آلتها النظر وأحد قواها الفهم الفارق بين الحق والباطل والأدب يحركها نحو أفعالها الصالحة ، والاهمال يدعها فى أعمالها الطالحة وبها يكون الفكر ويختص بها الانسان

فان اعتدلت فصاحبها يوصف بجودة العقل وصحة الفكر والتمييز وان خرجت عن الاعتدال ، فاما إلى النقص فصاحبها يوصف بالبلادة والعمى . واما إلى الزيادة فصاحبها يوصف بالمكر

تفصيل فضائل القوة الفكرية

(الاعتدال) . العقل . الذكر . الحفظ . الذكاء . الحكمة . الفهم التمييز . النطق . الصدق . (التفريط . الافراط) السفه الرياء . النميمة . التبذل . الغدر . الضرر . الحمق . الكذب الجهل المكر . الخبث . البلادة

متى صحت روية الانسان واعتدلت قوته الفكرية ، فانه يحكم على حقيقة المطلوب بما هو عليه بقوة تسمى (العقل) فاذا تذكر الصور والمعانى ، التى حفظها فى خزائن عقله سمى ذا (ذكر) وإذا ثبتت صور المعانى فى النفس كان ذا (حفظ) فاذا كان سريع الاستنتاج سمى ذا (ذكاء) فاذا اصطفى أشرف المعلومات وعرف أجل العلوم سمى (ذا حكمة) فاذا أدرك المعانى الواردة على النفس سمى (ذا فهم) وإذا فرق بين الحق والباطل والطيب والخبيث سمى (ذا تمييز) و بالكلام يقال إنه (ذو نطق) و إذا أخبر بالشىء على حقيقته سمى (ذا صدق) فهذه الفضائل

للقوة الفكرية فمن منحه الله أكثرها ، أو جميعها فقد أوتى مقاليد الحكمة ، وفتح له باب الرحمة ، وأبواب الجنان (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُهَا) الآية

فليعض بالنواجذ عليه وليسأل الله الزيادة منها ، ومن حرم بعضها أو أكثرها فليحكم إرادته وليعزم أمره وليسلط قوة الغضب على الشهوة بقوة الارادة وصدق العزيمة . ودونك رذائل النفس لتحترس من غوائلها ولتنأى عن باطلها

ذلك أن الانسان إذا تنزل عقله عن مرتبته وعزله عن عز مملكته تدلى إلى حضيض الرذائل وأحاطت به تلك الوحوش الصوائل فانه إن استعمل الفكر فيما لا ينبغى من الأعمال عموماً سمى ذلك (سفهاً)وأن عمل ليعتقد الناس فيه وليرائى مجالسه فيه فهو صاحب خلق (الرياء) وأن نقل الأقوال المكروهة بين الناس كان (ذا نميمة) وإن جالس السفهاء واطرح الحشمة وراءه ظهرياً وأكثر من الهزل سمى (متبذلاً) وإن رجع عما ضمن الوفاء به ووعد الناس ببذله فهو ذو (غدر) وإن بادر الأمور بغير توقف وسارع إلى الحركة بغير حاجة سمى ذا (خرق) وإن تصور الممتنع بصورة الممكن أو عرف الصواب وترك العمل به فذلك الموصوف (بالحمق)وأن أخبر بالشىء على خلاف ماهو عليه فهو موصوف (بالكذب) وإن ترك استعمال الصواب لعدم معرفته فهو ذو (الجهل) وإن أضمر الشر للناس واستعمل الخديعة فهو ذو (المكر والخبث) وإذا عطل هذه القوى واطرحها من غير تقصير فى الخلقة فهو الموصوف (بالبلاده) هذه هى الرذائل التى إذا صادفناها فى نفوسنا وجب علينا الاقلاع عنها والتملص من شرها والتخلى عن أذاها وهى مفاتيح أبواب جهنم

حكمة

إثنان يسعدان فى الدنيا والآخرة . العلم وحسن الخلق وإثنان يشقيان فى الدنيا والآخرة . الجهل وسوء الخلق اللهم إليك مقاليد الأمور فانقذ أمتنا من الجهل

وسوء الخلق والكذب والهزوء والسخرية والفجور والفسوق والتبذير والبخل والحمق والترف إنك أنت السميع العليم

تمرين على القوة الفكرية

وضح لك القول فيما سلف أن قوانا العقلية منتظمة كمجلس فمنهم أصحاب اليمين ومنهم أصحاب اليسار ولكل من الحزبين رأي وحجة يقدمها وآية يبينها فترى أمثال البلادة والحمق ترجح جانب الجهل والخسران وأمثال الذكاء والحكمة يرجحان قوة العلم والربح والنعيم

« مثلان ضربا لنظام النفوس الانسانية بالمجالس النظامية الرسمية »

الأول لما هجم التتار على دولة الاسلام فى أوائل القرن السابع بقيادة جنكيز خان واقتربوا من النهر وراء التركستان التأم مجلس أهل الحل والعقد من المسلمين وتشاوروا فيما بينهم وقالوا أيجتمع المسلمون فيتلاقون بأعدائهم حوالى النهر أم يبقون فى أماكنهم و يدافعون متحصنين فى حصونهم . فمن اختار الأول وهم الفقهاء قال إن القوة فى الجماعة والخيبة فى التفريق . ومن اختار الثانى وهم قواد العساكر قال إنهم إن دخلوا بلادنا وتفرقوا بيننا قدرنا على سحقهم متفرقين .فاختار القوم آخر الرأيين فدمرت البلاد وحق القول على العباد .

فهذا مثل من فساد الرأى فى المجالس النظامية . الثانى لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم تنازع المهاجرون والأنصار وخطب سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه فما بان الاصلاح إلا بخلافة المهاجرين ووزارة الأنصار إذ قال منا الأمراء ومنكم الوزراء فبايعه إذ ذاك عمر رضي الله عنه والصحابة أجمعون والتأم الجميع وتم الأمر

فهذا مثل الانسانية من أمثال المجالس المنتظمة . إذا عرفت هاتين اللطيفتين التاريخيتين فلتؤمن بأن عقولنا فى نظامها لا تعد واحد هذين المثلين فمن ساءت فطنته وغلبت شهوته تسلطت قواه القصيرة النظر كما فى المثال الأول ومن تربت قوى عقله وانتظمت آراؤه ترجحت حسناته وقلت سيئاته كالمثال الثانى وتذكر ما لاحظته أمس فى نفسى وما أدركته فى وجدانى الخفى .

حكاية

ولأقص عليك قصص اليوم لتراقب نفسك كما راقبتها وتلاحظها كما لاحظتها استيقظت يوم الجمعة ٢٥ نوفمبر سنة ٩١٠ صباحاً وأنا كالمصدوع من برد ألم بجسمى فأردت تناول الطعام كالعادة واذا مناد ينادى من نفسى بلا صوت ولا حرف تبينته وفهمته يقول :

إياك والطعام فالجوع شفاء المصدوع فقالت القوة الراغبة فى الغذاء آتنا غداءنا ولا تقطع رجاءنا فقال ذلك المنادى المنظم بالغذاء يوشك أن يزيد الصداع فقالت الرغبة لكن خلو الجوف يقطعنا عن العمل ويخلد به المرء للكسل ويدوخ الأنسان ويلحقه النسيان فقال المنظم إذا اجتمعت علتان يتبع الأخف فالجوع علة وازدياد الصداع أخرى ولكن الحمية رأس الدواء ولم يقل أحد أن فى الصداع شفاء فقالت الرغبة

« ورب مخمصة شر من التخم »

عند ذلك انبرى الفكر وقال أما أنا فسآخذ بالرأيين واستنتج من المقدمتين وأعمل بالحجتين فليأكل من الأطعمة أخفها ولا يتعاطى الخبز واللحم فتبقى للجسم قوته ويخلص من آلامه وشقوته ثم قال قضى الأمر الذي فيه تستفتيان

هذا ماقام بنفسى اليوم والناس أجمعون على هذا سائرون ولو أنى نبذت تعاطى الطعام ظهريا لكنت فى جانب التفريط ولو أنى لزمت عادتى وأطعت رغبتى لزاد المرض وكان ذلك افراطاً والعقل فى سائر الأيام لايفتأ يفكر على هذا القياس بحرية فكر ونظام والأمر لمن غلب من الأشرار أو الأخيار

ذم الافراط فى القوة الفكرية فى القرآن ، ذم التفريط فيها

مدح التوسط ، مثال جامع للقوى ، تطبيق القرآن

« على فضائل القوى الفكرية ورذائلها »

(١) ذم الافراط فى القوى الفكرية من القرآن قال الله تعالى ذماً للمنافقين وَإِذَا لَقُوا الذينَ آمَنُوا قالوا آمنّا وَإِذا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهِمْ قالوا إنّا مَعَكُمْ إنما نحنُ مُسْتَهزِءُونَ اللهُ يَسْتَهزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُولئكَ الّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بالهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) وقال ذماً إذامكروا (وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَيَشْعُرُونَ فانظُرْ كَيفَ كانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجمَعِينَ فتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاويةً بما ظلموا إنّ ذلِك لآيَةً لقوم يعلمون . وأنجينا الدين آمنوا وكانوا يتقون)

(٢) ذم التفريط والنعى على المقلدين استنامتهم وجهلهم بالحقائق (وقالوا لو كنا نسمعُ أو نعقلُ ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير

فانظر كيف كان اهمال العقل وترك التفكير داعياً لدخول جهنم كما أنه سبب الذلة فى الحياة الدنيا ، وقال يذم الذين اتبعوا الروءساء فى العقائد والتفكير ، وغفلوا عن أنفسهم (وَقَالُوا رَبّنَا إنّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبراءَنَا فأَضلونَا السَّبِيلَ رَبّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لعناً كَبيراً) وقال يذم الضعفاء الذين اتبعوا المستكبرين في جهلهم (وَإذ يَتحَاجُونَ فى النّار فَيقُولُ الضعفَاءُ لِلّذِينَ استكبروا إنّا كُنَّا لَكُمْ تبعاً فهل أَنتُمْ مُغنُونَ عَنّا نَصِيباً مِنَ النّار) وقال فى قوم (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فهم لا يعقلون) . وقال فى من يقرءون ولا يعقلون(مَثلُ الذين حُمِلُوا التوْرَاةَ ثمَّ لم يحْمِلوها كمثل الحمار) الخ وقال (افَلاَ يَتدَبَّرُونَ القرْآن

أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) وقال فى ذم تقليد الأمم الجاهلية (وَقَالَتْ أُخرَاهُمْ لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لِكلٍّ ضِعْفٌ ولكن لا تعلمون وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضلٍ فذوقوا العذابَ بما كنتم تكسبون) فتعجب كيف ذم الغافل بالآية الأولى — والذين أماتوا عقولهم واتبعوا الرؤساء بالثانية فالمستكبرين بالثالثة واتباع أمة متأخرة أخرى متقدمة بالرابعة والمنافقين والذين لا يفقهون بالباقى (وقال أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً فأن الله يُضلُّ من يشاء ويهدى من يشاء فلا تَذْهَبْ نفسُك عليهم حَسَرات إن الله عليم بمَا يصنعون

(٣) طلب التوسط فى القوى الفكرية من القرآن قال تعالى (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) ولعمرى ان هذا أعدل ميزان فاذا دعوت الناس فانظر مراتبهم ، فالعقلاء الأذكياء بالعلم والحكمة ، والجهلاء بالموعظة الحسنة ، والمجادلين الذين لم يصلوا إلى طبقات العلماء ، فيعتلوا الحكمة ولم ينحطوا إلى دركات الجهلاء فتكفيهم الموعظة ، فأولئك يجدى معهم الجدال بطريق الحسنى قال تعالى (وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) وقال (فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى) وقال (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبَابِ) والحكمة كل كلمة وعظتك أو نفعتك وقال (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ) وآيات القرآن كثيرة فى مدح التفكير والتعقل كقوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) فاقرأ الآيات التى شرحت العالم مثل (أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) ومثل (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

لَآيَاتٍ لِأُولِى ٱلْأَلْبَابِ) وبالجملة ففي القرآن سبعمائة وخمسون آية كلها حث على التفكير والنظر واستعمال هذه الموهبة الجليلة العقلية (وَٱللّٰهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(مثال لجميع ماتقدم فى القوى الثلاثة)

خبث دهاء	الاقدام التهور	شره بهمة تبذير اسراف
حكمة	شجاعة	عفـــة
بلادة	الجبن الخوف	ضعف الشهوة امساك تقتير

العدالة

ما الذى يتعلمه الطالب ويعمله ؟ ما الذى تعلمه الأمة وتعمله . الصناعات ؟ العلوم الشرقية والغربية ، لا سعادة إلا باجتماعها ، حب الغنى والفقير ، والصعلوك والأمير ، أسباب المحبة .

هأنت أيها الذكي الطالب قرأت ما فصلنا فى القوى الثلاث ، من الشهوة والغضب والفكر ، وعلمت الرذائل والفضائل ، فلتعلم اليوم ان اجتماع فضائلها ، وانتفاء رذائلها يدعى عدالة وعلى ذلك تكون الفضائل أربعة ، الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة ، هذه هى السبيل الوسط والصراط المستقيم فالعدل من جمع تلك الفضائل أو قاربها والجائر من لم يرفع بها رأساً أو لم يقاربها فمن اعتدل فانه يتصف بسبع خصال (١) العبادة لله وتمجيده وتقديسه وتكريم رسله واجلالهم فانه عز وجل هو مصدر النعم والخيرات والرسل والأنبياء هادون مرشدون (٢) أن يكون له أصدقاء يهتم بأمرهم ويقوم بشأن صداقتهم (٣) الألفة بحيث تتفق الآراء فى تدبير نظام الأعمال ، مع الحب والاخلاص بين الجمعيات وسائر طبقات الأمة (٤) صلة الرحم ومواساة من تصلهم بك لحمة النسب بالبدن والمال والجاه والعلم والتعليم (٥) المكافأة وهى مقابلة الاحسان بالاحسان والزيادة خير وأفضل (٦) حسن المشاركة وهو الاعتدال فى الأخذ والعطاء ، وانصاف من نفسك (٧) التودد بحسن

اللقاء وجميل الأفعال لآبائه وأبنائه وأقربائه ولأصدقائه ومخالطيه ومعاشريه وللغريب المسافر ممن ورد عليه فليحييهم وليكرم مثواهم فأما من خرج عن الاعتدال فذلك يتصف بخمس صفات (١) الظلم وهو أن يتوصل إلى جمع المال من حيث لاينبغى (٢) الانظلام وهو الرضا بالمذلة (٣) النذالة وهى منقصة تنزع بالمرء إلى الجمع من كل جهة (٤) العجز فلا يسمو إلى أمل ولا يتوق إلى شرف (٥) الضجر وهو أن يجزع الانسان ويتغير سريعاً من أى شىء يرد عليه

مايعلم الطالب ومايعمل

لقد فهمت لماذا خلقنا وبماذا نحيا ولم خلقت الغرائز فينا قد فصلنا لك هـذا فيما مضى .

تعلم من هذا أيها الطالب الذكى أن سعادة الانسان بالعلم والعمل ، وعالم الأخلاق لا ينسى حظ طالبيها من العلوم ، إنه يسعى لائتلاف القوى ويجد لغلبة القوة العقلية على الآخرين لتخضعا له خضوع المرءوس للرئيس ، والقوة العاقلة لا تفتأ تطالبنا بعلم حقائق العالم المحيط بنا فلنعطها حظها ولو قليلا من العلوم الطبيعية والكيماوية كالضوء والحرارة وأحوال الماء والسحاب وأجزاء المواد من حامض وسائل وهوائى فالعاقل لا تهنأ له حياة إذا أصم أذنيه وأغمض عينيه وعاش كالجماد لا يدرك سر ماحوله ولا يقف على خبر مما يرى حوله صباحاً ومساء . لتعرف أنواع الحيوان وعجائبه وغرائب النبات وبدائع المعدن والحكم العالية الدقيقة فى تركيب أجسامنا لتنال الحظين وتقتطف الثمرتين وتجنى جنى الجنتين جنة العلوم لجمالها والمنافع المادية للحياة الجسمية ولتقرأ عجائب الفلك والرياضيات وما أنتجت من الموسيقا وتركيبها البديع العجيب ولتعلم أن تقويم اللسان مقدم على الرياضيات فلتقرأ اللغة نحوها ومنثورها ومنظومها وخطبها وعلم أخبار الأنبياء والأولياء والملوك وسياستهم وأخبار الفضلاء والحكماء والكرماء من سائر الناس ولتعرف الكتاب والسنة والتفسير والحديث وعلم الحكمة الباحث عن العالم ونظامه وخالقه وملائكته والروح وأحوالها وراهيها

ثم لتتخذ لك صناعة تتفرغ لها بقية الحياة لتتقنها وتحسنها كالتدريس والامارة والصناعة من طب وهندسة وكتابة ولا يصدنك عشق العلوم عن الصناعة الخاصة كما لا تصدك الصناعة الخاصة عن العلوم فانما تلك العلوم إجمال والصنعة الخاصة تفصيل وتحقيق فاما العمل فذلك أن تسوس نفسك كما قدمنا وتسوس أهل منزلك ولتراع سياستك مع العالم وليكن لك علم بأحوال الأمم المحيطة بنا إجمالا من غربيين وشرقيين لئلا ينفر طبعك من طبائعهم فلا تتخذ الاحسن من أعمالهم ولا تستطيع الفرار من تدبيرهم بأمتك إذا أرادوها بسوء واعلم أن لكل أمة من الأمم إخلاقاً وآداباً وحكما من صينين وهنديين وغربيين وروسين فاتخذ من كل شيء أحسنه .

ما تعلم الأمة وما تعمل

الصناعات . العلوم الشرقية . والعربية

كما أن الصائد لا ينال قنيصته والمصرى لا ينال قوته إلا بحصان للأول ونهر النيل للثانى فهكذا لا يحيا المرء حياة طيبة إلا إذ كان صحيح البدن يستمرىء الطعام والشراب وهذا يستدعى صناعة أو مادة تقوم بحاجته والأمة كالفرد إذاضاقت سبلها وقلت صناعتها أو زراعتها فانما مثلها مثل الصائد ضعفت فرسه والمصرى غاض ماء نيله والانسان كلت شهوة طعامه والأمة المصرية الآن أحوج إلى رقى الصناعة والزراعة والتجارة لسد خلل الضعف المادي لأنك علمت تمثيل الأمة بالفرد ولتتذكر أيها الطالب أنّ بعض العقول الضعيفة النظر اقتصرت على علم لا تتعداه فمنهم من قرأ العلوم الشرعية أو القديمة فحارب غيرها ومنهم من سافر إلى أوربا فرجع كافراً بالشرق وعلومه وهؤلاء ضالون مضلون فلتكن كما قال الله تعالى فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ولقد علمت أن الصائد بلا كلب معلم قليل الفائدة فهكذا الانسان بلا شهامة ولا غيرة ولا شجاعة لا حياة له ولا عز ولا فضل وهكذا الأمة التى قل نصيبها من

لشجاعة ورجال القوة ضائع أمرها كبير ضرها قليل خيرها كمثل النيل ضاع ماؤه في البحر والصائد مات كلبه والأسد قلمت أظفاره وقطعت مخالبه والفيل قلع نابه وأمة هذا شأنها تصبح كأنها كرة تتلقفها الأيدى وتصير فى الأذلين الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنياوهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً لذلك كانت السعادة بالاجتماع والحب جماله وكماله وقد علمت أنه لا بد لكل امرىء من عمل يقوم به للمجموع ولتعلم أن أمتنا المصرية اليوم ليس لها حظ فى شىء أكثر من القضاء والمحاماة ولا تزال طفلة فى الصناعات والتجارات والزراعات التى فيها غذاء الأمة وهى منزلة منزلة الكلب فى الصيد والنيل فى الزرع والمعدة والأمعاء والكبد فى الجسم ونظارة الداخلية والهندسة فى الحكومة .

فصل الحب

(١) حب الناس (٢) تمثيل بالحشرات (٣) حب الرؤساء (٤) رابطة العلم والاخلاق (٥) رابطة الدين (٦) حب الأبوين والاقارب (٧) الحب العام

على الأمة تكميل ما نقصها وعلم ما جهلته وهل المنفرد سعادة من اين له القيام بأعباء الحياة وسقى الزرع وحصده ودرسه وغربلته وطحنه وخبزه وكيف يهندس ويوقد النار ليسير القطار وينظم البريد ويغرس الاشجار ويجرى الأنهار مما لا يحصر القلم مقداره ولا تبلغ سعة البحر مداده فلعمرك من ذا الذى يعلم احتياج الناس للناس من ذا الذى يعلم أن سائر الناس خادمون فالمهندس لاجراء الأنهار والفلاح لغرس الزرع وسقى الأشجار والطبيب لمداواة الأجسام بالعقاقير

فأحب أيها الطالب سائر الناس لاسيما أبناء أمتك واعلم أن بغض الناس ناشىء من حقارة النفس وصغر همتها ودناءتها وجهلها والمبغضون للناس قوم ختم الله على قلوبهم فهم لا يفقهون ومن كره الناس فقد كره نفسه فانهم يكملونه ومن كره من كمله فقد كره نفسه ومن كره نفسه فهو من أجهل الجاهلين . انظر وتعجب ألم تر النحل فى كواراته والنمل فى بيوته والزنابير فى جماعاتها كيف

تعاونت وتعاضدت واتحد بعضها مع بعض وكونت أمة تجمع الطعام وتدفع الأعداء قلوبهن قلب فرد واحد وقد شاهد الناس كيف تتحد الزنابير على أن تلسع من يقربها أو يمسها بسوء لقوة الاتحاد والتضامن والتكافل وأن المجموع فرد واحد

ياحسرة على الأمة التى حرمت المودة والحب بين أفرادها أولئك هم الطاغون لا تسيء الظن بمن تولى رئاسة أو أنعم الله عليه بنعمة المال والحياة فتكرهه وتبغضه لهذا السبب . ولتعلم أنه أخوك وعضدك وحافظ أمتك متى كان عادلا صادقاً أميناً فأحبه وأعنه

ولا تتخذ غناه وأمارته ورفعته وجاهه وسبله للكراهية أنك إن فعلت ذلك بلا سبب يقتضيه ولا ذنب يجنيه فقد دللت على صغر فى نفسك وخور فى عزيمتك

ولتعلم أن أبناء الأمة كأعضاء الجسم فالرأس لا يسعها الاستغناء عن العين ولا العين لاتستطيع السعادة بلا رجل وليست الرجل نائلة خطها مالم يكن الرأس والقلب والأمعاء ولو أنهن نطقن لقالت كل منهن إنما حياتنا أساسها الحب وقوامها الصداقة ونتيجتها السعادة

الحب العام بالتعليم العام

أيها الطالب الصادق الحب أول سعادة البلاد وآخرها ولعلك شاقك أن تعرف سببه

فلتعلم أن النفوس لاتتحاب إلا بالاجتماع فى صفات وأحوال فكلما اقتربت تحابت وكلما تباعدت تنافرت ولذلك وجب تعميم التعليم

الفضيلة والرذيلة والسعادة

إذا زرعنا شجراً وتعنينا فى إنمائه فغايتنا ثمره هكذا اذا نصبنا فى تحصيل الفضائل فالغاية السعادة

السعادة نيل المراد الشريف وراحة النفس والاستلذاذ بالفضائل ولا سعادة لفؤاد مضطرب ونفس فاجرة فما من رذيلة الا ولها فى النفس سوء الأثر فالجهل أشد الآلام والبلادة شقاء الجهال والنسيان والسهو بلية الانسان والعجب والكبر يوردان القلب موارد العطب و يصرعانه فى المنقلب بالحظوظ الخسيسة والشهوات الباطلة والتعرض لمقت المقتين واستهزاء المستهزئين والحسد يودى بصاحبه و يقطع فؤاده ويقلبه فى نار السعير و يعرضه لخطر كبير والشره يعذب صاحبه و يوقعه كل يوم فى نائبته . ومن ظن المال غاية ما اشتهاه والسلطان والعز قصارى مناه عذب بها العذاب الاكبر .

(وَلاَ تُعْجِبْكَ أموالُهُم ولا أولادهُم إنما يريدُ اللهُ ليعذبَهم بها فى الحياة الدنيا وتَزهَقَ أنفسَهم بما يصيب محبوبهم من الافات وما يعرض له من النكبات وهم عادمو الصبر قليلو الاجر كثيرو الهلع عظيمو الجزع فأنى يكون المرء من السعداء وقد كتب نفسه بيديه فى ديوان الاشقياء فالسعيد من اتبع الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم بالعفة وما يتممها والشجاعة والحكمة واقسامها أولئك هم السعداء فى الدارين عند ربهم يرزقون فرحين أذا اعتادوا ومرنوا على ذلك حتى صار مستلذاً معشوقاً فيأنس أحدهم بالمعارف العالية والطبيعات واقسامها والرياضيات وافلاكها والالهيات وجمالها و يعلم ما تصله القوة البشرية من المعارف الحكمية و يأنس بالعدل فى عمله والصدق فى منطقه والمروءة فى أصحابه وقد أرضى أشرف العقلاء ورضى بما ساقه القضاء ولا يطمعن فى رضاء سائر العالمين فأن ذلك ليس فى حيز الامكان .

وغاية الامر وقصاراه التعالى عن الرعونات الدنيوية والرضاء ثم الطمأنينة .
(يا أيتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ارْجِعى إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيةً فادْخُلى فى عِبَادِى وادْخُلى جَنَّتِى) .

— • —

من هذا تعلم قول بعض علماء الغرب لبعض شباننا لا يضلك المال اذا امتلأ قلبك بالفضيلة فاملأ القلب حكمة وفضيلة والجيب فضة وذهباً فالمعدم محدود الفضائل وَالمثرى وَاسع المعروف وانا أقول .

ألم تسمع أقوال النبي سليمان عليه السلام (وأُوتِينا من كل شيء إنّ هذا لهو الفَضْلُ المبين) . اه

القدوة الحسنة

ما من نبي أو عالم أو عامل إلا كان قدوة على حسب درجته فاصبر وَاجتهد حتى تكون كالشمس وضحاها والنجم الزاهر فى ظلمات الدياجر لتكن شمساً يضيء سناها للناظرين وسيرتك هدى وعلمك نبراساً للسارين

أيها الطالب إن حركاتك وسكناتك وغدوَاتك وروَحاتك أُساس يبنى عليها ومقدمات لنتائج فاحذر الحذر كله أن تكون قدوة سيئة للبنين وكن خيراً القدى لخير المقتدين حتى يصدق علينا قول السموءل

اذا مات منا سيد قام سيد قؤول لما قال الكرام فعول

لايرين الناس منك إلا كمالا وَلا يطلعون منك إلا على ما جمل وحلا ولا تقعن عين منك على قبيح واصلح السريرة وأحسن العلانية وذر المباهاة والملاحاة والمشاقة والمراء واظهر البشر وقل للناس حسناً وآت ذا القربى حقه واعف واصفح ان الله يحب المحسنين .

علاج الرذائل

إن السبيل الاقوم والمنهج الاوضح فى علاج الرذائل مقاومة كل واحدة بضدها ، وَالتعود على نقيضها ، ومحاربتها بعدوها ، فالجهل بمزاولة التعليم ، والبخل بتكلف البذل ، ومداومة العطاء ، الا ان للعادة لتأثيراً على النفوس الحيوانية فضلاً عن الانسانية ، كم من حيوان اقتاد الانسان بالتعويد فسخره للركوب

وامتطاه ، للحرب ، وذلله للحلب ، وساقه للحرث ، وصيره يسقى الزرع ، وقد كان قبل ذلك لاذلول يثير الارض ، ولا يسقى الحرث، افليس الانسان أرقى من الحيوان وقد علم البيان فكم من جبان ركب هول البحر وهو مضطرب الحركات ، هائج الأمواج ، فألف الصعاب وصار شجاعاً ، وكم من بخيل تعود البذل فاعطى المال وأكرم النزيل ، حتى صار طبعاً مستلذاً ، وعادة مألوفة .

عجب للعادة وأى عجب ، تقلب المحبوب مكروهاً وترد المألوف مبغضاً ، وتجعل السفيه حليما ، والحليم سفيهاً ، والجاهل عالماً والكاذب صدوقاً ، للعادة فى النفوس عجائب الا أن للجوارح لأثراً في النفوس ، وللنفوس أثراً فى الجوارح ، كالبحر يمطره السحاب والسحاب من البحر ، وغاية التهذيب أن تصير الفضائل لذائذ والرذائل آلاماً

الا أن متكاف الفضائل مجاهد ، ومريد لا يزال على الصراط مسافراً لم ينل بغيته ولم يحظ بنواله .

أنه فضل على القاعد الغافل ، والساهى النائم والفضل كل الفضل ان يصير المتكلف مرغوباً ، والمكروه من الطاعات محبوباً ، جاء فى الحديث الشريف وجعلت قرة عينى فى الصلاة . ألا و إن قِوام الامر وعماده .

(وأَمّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبه وَنَهى النَّفْسَ عنِ الهَوى فإِنَّ الجنةَ هى المأوى)

الغضب

الغضب ثوران يغلى به الدم فيرتفع فى أعالى العروق فيحمر ظاهر البدن دفعاً للاذى قبل وقوعه وانتقاماً من المؤذى بعد حصوله ، اذا ظن القدرة على خصمه فان بدا له الضعف تبدل الاحمرار اصفرارا . وكر الدم راجعاً لاعماق الجسم هارباً من ايذاء الخصم ، وان تردد بين الاعتقادين وشك فى الامرين ، تعاقب الالوان ؛ فاحمر ان قدر ، واصفر للخور ، فالدم كالجيش المحارب ، يقدم اقدام القادر ،

ويحجم احجام الحائر ، (ماترَى فى خلقِ الرحمٰنِ من تفاوُتٍ)

وللغضب آثار ظاهرة كتغير اللون وشدة الرعدة فى الاطراف وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام، واضطراب الحركات والكلام، حتى ينثر الزبد على الأشداق، وتحمر الاحداق وتنقلب المناخر ، وتستحيل الخلقة ولعمرك أن قبح الظاهر أثر لقبح الباطن ، وما الظاهر الا مرآة تجلت فيها صورة النفس وثمرة ظهرت فى شجرةٍ أصلها ثابت فى القلب ، وفرعها ممتد فى الجوارح ، وهل انطلاق اللسان بالشتم والفحش من الكلام مع تخبط النظم واضطراب اللفظ والاقدام على الضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن حتى اذا عجز عن التشفى رجع الى نفسه فمزق ثوبه ولطم خده وضرب بيده على الارض وغدا كالواله السكران ، والمدهوش المتحير ، وربما سقط فاغشى عليه وقد يضرب الجماد ويخاطب الحيوان وربما رفسته دابة فرفسها أو انكسر القلم فشجه كما يعامل العقلاء

هل هذا إلا من آثار اضطرام نيران القلب وصورة من قبحه وكم له من صور تبرزها الايام وتجليها الحوادث مع المغضوب عليه كالحقد والحسد والشماتة بالمساءات والحزن بالسرور وافشاء السر وهتك الستر والاستهزاء فهذه ثمرات افراط الغضب

وأما ما يضاده فالحمية الضعيفة وثمرتها قلة الانفة واحتمال الذلة وعدم الغيرة على الحرم والسكوت عند مشاهدة المنكرات من غيره والا يغضب على نفسه فيلومها عند مقارفة الذنوب ومباشرة العيوب ، فلا يتوب فمن ابتلى بذلك فليثر حميته ، فكلا الطرفين مذموم والوسط ممدوح اهدنا الصراط المستقيم

لطيفة

ضرب مثل لقلب الانسان بحال الأرض

ألا إنما مثل قلب الانسان كمثل سطح الأرض ان خبثت انبتت القتاد والشوك والحسك ، وخبيث النبات يتغلب على طيبة ورديئه على جيده ، وما مثل الهجر

والحسد والشماتة والاحتقار والغيبة وهتك الستر والايذاء بالضرب وغيره الناجمة من الحقد النابت فى أرض القلب الذى أفسده الغضب، إلا مثل شوك السعدان وشجر الطرفاء ونبات الحنظل والعلّيق ، إذا نبتت فى أرض لم يتعهدها مصلحوها ، ولم يقم عليها أهلوها . ألا وان القلب إما جنة ذات رياض وفاكهة وروح وريحان من علم نافع وحكمة صالحة ، واما نار تستعر وجحيم ترمى بشرر فيحترق الجثمان وتنحل الأبدان .

ألق ببصرك فى الفضاء ، وتأمل النبات وتعجب ألم ترَ إلى ذلك النبات الأبيض المسمى بالهالوك الذى ينبت مابين شجرات الفول فيمتص غذاءها ويبيد أثمارها وحبها . تشابه هذا العالم ، وكانت الأرض مثل القلوب ، والفول مثل الفضائل والهالوك مثل سيئات الأخلاق ، كالحقد والحسد ونحن مازرعناه ، وانما هو النامى بنفسه ، المعتدى على نباتنا المميت لمادتنا ، المبيد لأغذيتنا ، ألا وان ماضر الناس نام بنفسه وما نفعهم يعوزه القيام عليه

فاذا ابتليت بمن آذاك فلا تجعل للحقد عليك سبيلاً وأزل الرذيلة من قلبك كما تزيل الحشائش الضارة للزرع بعزقها وافعل مافعله أبو بكر الصديق رضى الله عنه فانه لما حلف ألا ينفق على مسطح قريبه وقد تكلم فى واقعة الافك نزل قوله تعالى (وَلاَ يَأْتَلِ أُولُوا ٱلْفَضْلِ مِنْكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِى ٱلْقُرْبَى وَٱلْمَسَاكِين وَٱلْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللهِ وَلْيَعفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ ٱللهُ لَكُمْ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فوصله بعد القطيعة وأنعم عليه بعد الحرمان

العجب وسببه وعلاجه

العجب استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم ، فأما من كان خائفاً وجلا مشفقاً من زوالها ومن فرح بها من حيث انها نعمة من الله فليس بمعجب

أما سببه فالجهل وأساسه ، الوهم الذى عليه تبنى قصور الهوى ومحاريب الجهل ، وتماثيل الفخار .

فأما علاجه فان يعرف المرء ان ماتباهى به بين الأقران لايخلو من أحد أمرين اما مايدخل تحت اختياره ويظهر بعمله ويحصل بسعيه كالعبادة والصدقة واصلاح الأمة وسياسة الجمهور وحشد الجنود ورفع البنود ، ونظام الموازين ، وتعليم الناشئين فهل جهل ذلك المسكين انه مخلوق ضعيف مركب من عناصر مقهورة مؤلف من أمشاج فى ماء مهين ، وماذا عمل ان هو إلا آلة مسخرة ، وطينة محيرة وصورة مجندرة وصنعة مدبرة وآية مصغرة وعظة وتذكرة ففاجر من فجره أو شاكر من بره

واما ما لاعمل له فيه فان كان جمالا أو قوة أو نسباً أو ميراثاً من كل ما لااختيار له فى حصوله ولا سبب أوصله إليه فان الأمر أهون والمعجب إذاً أشد جهالة وأخسر صفقة وأقل فكراً وأبعد ضلالا وأسوأ حالاً

ومن أجهل ممن يعجب بما لم يفعل وان المعجب مغتر بنفسه آمن زوال نعمته حيث لا أمان ، قتل الانسان ما أجهله

واعلم ان أسباب ذلك ستة أمور وهى (الجمال ، القدرة ، العلم ، النسب ، الميراث ، الملك) .

﴿ العلاج ﴾

التأمل والتذكر والتدبر وادّكار ان الموت شامل والاعتبار بمن مضى من الأمم فأخلوا الديار فصارت قاعاً صفصفاً بعد العز والبأس ، ورسوخ الدولة وتمام الزينة

وَقال صلى الله عليه وسلم لو لم تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عليكم ماهو أكبرُ من ذلك ، العجب ، وقيل لعائشة رضى الله عنها متى يكون الرجل مسيئاً قالت إذا ظن انه محسن

وقال الله تعالى (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً) وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات « هَوًى مُطَاعٌ وشُحٌ مُتَّبَعٌ وإعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِه »

الكبر

الكبر أن يرى الانسان نفسه فوق غيرها بعلم حصله أو عمل أتقنه أو أصل نسب له أو جمال أطغاه أو مال ألهاه أو قوة أعزته ، أو عشيرة نصرته ، فهذه أسباب تدعو أولا للاعجاب بنفسه ، واستحسانه صفته ، والفرح بما يراه أهلا له ، من صفة الكمال والجمال ، وقد يكون لحقد ملأ فؤاده ، أو لحسد أغضبه ، أو لرياء اعتراه ، فهذه أربعة أسباب تدعوه للكبرياء أما العجب فقد تقدم ذكره وسبق شرحه

أما من حقد على من آذاه ، وأضمر له السوء واستبطن له الشر فانه يتكبر عليه ويزدريه ؛ وهكذا الحاسد على النعمة الفاقد للفضيلة ، والمرء الذى يطلب الرفعة والسؤدد ، انه لايقبل العلم أمام الجالس ، ولا يقر بالفضيلة المحسودين ولا يسمع النصيحة فى ملأ من العالمين

﴿ العلاج ﴾

فليعالج المتكبر نفسه ، بالعلم والفهم ، وليتذكر انه مكون ضعيف مربوب ، وليواظب على أعمال المتواضعين ، وليحذر التنزل والمذلة والابتدال ، فإذا تقدم لاخوانه وقرنائه فسوى نعالهم ، وأكرم مثواهم ، وسارّهم ، وسرّهم ، وغدا إلى باب الدار معهم ، فهو المتواضع ، وان تنزل إلى أسفل الدرجات ، وعامل من تحت درجته معاملة إخوانه ، أو أخذ يتملق ، أو يتذلل ، فقد تنزل إلى الأسفل ، وأضحى من المتبذلين

فليعالج المتبذل نفسه برفعها ، ولينف المتكبر أسباب كبريائه من الحسد القاتل ، والحقد المكين

ذم الكبر وايضاحه

الكبر شجرة أصلها ثابت فى القلب ، وفرعها فى الجوارح ، وثمرتها فى الأعمال كان يترفع عن مجالسة نظيره ، ويأنف من مخالطته ، ولا يساويه فى مجلسه ، وإذا

ناظره عنف ، وان كلمه أنف ، ويتقدم عليه ان ماشاه ، ولا يقبل منه نصيحته ان هداه ، وهذا الخلق غائلة العباد والزهاد ، وبلية الوعاظ والعلماء ، فضلاً عن العامة الجهلاء ، وهو أعظم المحن ، وأكبر البلايا والاحن ، قال صلى الله عليه وسلم (لا يدخلُ الجنةَ من فى قلبِ مثقالُ ذرةٍ من كِبْرٍ) والانسان ظلوم جهول قد يسوقه الغرور للتكبر على الله فيقول أنا ربكم الأعلى . وقد يرى نفسه أحق بالرساله ، وأولى بالشفاعة ، فيقول ولم أُرسل المرسلون ، واصطفى النبيون ، ومُنع من تلك النعمة فلا يتبع نبياً ولا يرى له رسولا . وقد يرى الناس دونه خلالا ، والعامة حميراً ، فيعظم خطبه ويفحش ذنبه

الفرق بين العجب والكبر

المعجب يرى مُدلا بنفسه ، فرحاً بسمته ، وان كان غيره أسمى فى نظره ، وأعظم فى معتقده . والمتكبر أعظم جرماً وأكبر إثماً فهو يريد أن يرى غيره دونه وهو القاهر فوقهم وقد ذمه الله تعالى فقال : (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) وقال (وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ) وقال عليه السلام (اللهم إنى أعوذ بك من نفخة الكبرياء) وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ان نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا بنيه وقال إنى آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين أنهاكما عن الشرك والكبر وآمركما بلا إله إلا الله فان السموات والأرض ومن فيهن لو وضعت فى كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله فى الكفة الاخرى كانت أرجح منهما ولو أن السموات والارض ومافيهن كانت حلقة

فوضعت فيها لا إله إلا الله لقصمتها ثم آمر كما بسبحان الله و بحمده فانها صلاة كل شيء) وقال صلى الله عليه وسلم (لا ينظرُ اللهُ إلى رجلٍ يجرُّ إزارَه بَطَراً) و روى عنه عليه السلام انه (بصق يوماً على كفه ووضع اصبعه عليها وقل يقول الله يا ابن آدم اتعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سو يتك وعدلتك مشيت بين بردين وللارض منك وجيب جمعت ومنعت حتى اذا بلغت التراقى قلت اتصدق وانّى أوانُ الصدقة)

الحسد

الحسد هو كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه ومن تمنى مثل نعمة غيره فهو الغابط والمنافس وهو ليس بحاسد

﴿ أسبابه ﴾

(١) العداوة (٢) التعزز (٣) الكبر (٤) العجب (٥) الخوف من فوت المقاصد المحبو بة (٦) حب الرياسة (٧) حب النفس وبخلها فيثور الحسد فى النفس على مقتضى الأسباب

فمن كره امرأ ثقلت عليه نعمته وسرته بليته واستعذب شقاءه ومرت عليه حلاوته ومن لم تلن شرّته دامت حسرته

وكم من امرىء كانت نعمته الموهو بة وسعادته المستحدثة وسيلة للاستعلاء فيثور الحسد فى قلب قرينه و يأبى إلا التعزز عليه فلا يخضع لاستطالته ، ولا يصغر لعظمته ومن كانت الكبرياء ضفة نفسه لم يستطع أن يرى المتكبر عليهم ، يساوونه ولم يطق صبراً على نعمة لهم حدثت وسعادة أقبلت ، ليبقى عليهم ظاهراً وفوقهم قاهراً ذلك بسبب الكبر الذى فى نفسه ، و إن لم يتعاظموا عليه وكم من فتى أثار الحسد فى قلبه ، واشعل نيرانه وألهب سعيره ، تعجبه من ترادف النعم على من يخالفونه ، واستغرابه من تتابع المواهب وتواصل المنح وتوارد اللطائف وقد يشفق من زوال محبوب يبتغيه أو فوات مطلوب يرتجيه ، إذا ذاق معارفه نعمة من بعد

ضراء مستهم فينافسونه على مطالبه ، ويزاحمونه فى سلوك سبيله ، كأرض يملكها أو عرس يبنى بها ، أو درجة يرقاها أو نعمة يلقاها ، ومن الناس من يحسد حباً للرياسة وما يخشاه من وهن سلطانه ، وانقضاض بنيانه ، ، وتفويت عزه واستقلاله وآخرون خبثت نفوسهم ، وضل سعيهم إذ يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله بلاسبب إلا مرض نفوسهم وشحها وسوء طويتهم ، يودون أن لو منع الله الرحمة عن العباد لا يطلبون الانفراد بها ، ولا السيادة على غيرهم ولكن أنفسهم ضيقة العطن ، عديمة الفطن قليلة الخير ، ميتة الأفئدة أولئك هم الحاسدون الضالون

وكلما تضافرت الأسباب بالاجتماع فى المجالس ، والتجاور فى المنازل ، والاشتراك فى الحرمة والاقتراب بالنسب أو المصاهرة ، كان اضطرام نار الحسد أشد ، وامتداد لهيبها أسرع وازداد سعيرها ، وطغى شررها وغلت مراجلها فزاد احراقها لمواد المحبات وابادتها لذات المودات ، وكانت الحياة حياة الأشرار إذ ذاك شرا و بيلا وعذاباً إليماً قال صلى الله عليه وسلم (الحسدُ يأكلُ الحسناتِ كما تأكُلُ النارُ الحَطَبُ) وقال عليه السلام (لا تَحاسدوا ولا تَقاطعوا ولا تَباغضوا ولا تَدابروا وكونوا عبادَ الله اخوانا) وقال أنس كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أهل الجنة ، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه فى يده الشمال فسلم فلما كان الغد قال النبى صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فطلع ذلك الرجل وقاله فى اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص ولزمه ثلاثة أيام فى بيته ، فلم يجده يصلى بالليل فاحتقر عمل الرجل ، فسأله ما الذى بلغ بك ، فقال هو ما رأيت غير أنى لا أجد على أحد من المسلمين في نفسى غشاً ، ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه ، قال عبد الله ، فقلت هى التى بلغت بك وهى التى لا نطيق وقال صلى الله عليه وسلم (ثلاثة لا ينجو منهن أحدٌ الظنُّ والطِّيَرَة والحَسَد وسأحدثكم بالمخرج من ذلك إذا ظننت فلا تحقق واذا تطيرت فامض و إذا

حسدت فلا تبغ) وقال الشاعر

يا احمدُ اقنع بالذى أُوتيته ... إن كنتَ لاترضَى لنفسك ذُلَّها
واعلم بأن اللهَ جلَّ جلالهُ ... لم يَخلُقِ الدنيا لأجلِك كلَّها

لا تسلط على قلبك نيران الحسد التى يثيرها أسبابها وتفكر فى مصائبه ورذائله وما ينجم عنه من العذاب الأليم فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى

ومن ابتلى بالحسد والعياذ بالله كيفما كانت أسبابه تقطعت به الأسباب وأزرى به الكمد وتنغص عيشه. ألا ترى أن نعم الله مترادفة لاينقطع مددها ولا ينفذ خيرها ومن ذا أشقى ممن عد نعم الله شقاء عليه وجنته نار عذابه ، ودار شقائه فهل يمسك الله المطر خشية عليه أو يمسك الكواكب لئلا يتقطع فؤاده .

فالشمس والقمر والنجوم والجبال والأرض والأنهار مسخرات للعباد ، وهنائهم وراحتهم وسعادتهم ، فسبحانك اللهم أشقيت قلوباً بالرحمات ، إذا نسوا أنفسهم فتاهوا فى أودية الضلالات فعدوا نعم الله عليهم نقما ، وحسبوها لهم شقاء دائماً فما أكثر نعم الله وما أدوم شقاءهم . وقلت

وفى القلب نيرانٌ وفى القلبِ جَنَّةٌ ... وما أكثرُ الآلامِ إلا من الفكر

وكفى الحاسدَ عذاباً أنه معذب بنعيم غيره ومعاقب على الحسد بنفس الحسد ، فلذلك كان طول الحياة له شقاء وموته راحة له ، فكما يتمنى الحاسد زوال نعمة المحسودين يشفى غليل صدور محسوديه أن تطول حياته فيطول عذابه كما قيل :

لامات أعداؤُك بل خُلِّدُوا ... حتى يرَوْا فيك الذى يكمد
لازلتَ محسوداً على نعمةٍ ... فانما الكاملُ من يُحْسَد

الثبات والعزيمة

الثبات المداومة على العمل والعزيمة من أحوال الارادة والثبات حال داعية لأدامة العمل إلى النهاية

كم فى الناس من عامل ، وقل أولو العزم ولم ينل الرغائب ويحظ بالمطالب إلا

من صحح العزم وشمر عن ساعد الجد وامتطى العمل .

دِراكُ المعالى في اقتحام المخاوفِ ونيلُ الأماني في ارتقاء التنائف
وما نال مجداً من أدارَ عروسه وباتت تعاطيه سُلافَ المراشِف

وقد قلت :

إلى ذِروَة العليا . يا سائقَ الحَرْفِ فإنى شممت اليوم منها شذا العرف

وماجمع امْرُؤٌ أمره وَجدّ في طلب مايرومُ، إلا خَضَعَت له الآمالُ ودانت له المعالى وفاز بالسعادةِ والـكمالِ وتأمل كيف مدح الله أولى العزم فقال : (فاصبر كما صبرَ أولو العزْمِ من الرسل) وقص عليه أنباءهم وكان قصارى أمرهم بهم فازوا بالسعادة هم والتابعون وخسر أولئك الجاهلون

الصبر

الصبر ثبات الباعث للخير والفضيلة في مقابلة الباعث للشر والرذيلة وذلك أن الانسان يشارك الدواب في الشهوة والغضب ، وليس للصبي ولا للمجنون ولا للبهائم من داع يدعو لقهر الشهوات ، ولا من رادع يردع عن اللذات ، إلا انما يظهر جهادهما ويبين التغاضي عنهما والتخلي من غائلتهما لمن عقل واستبصر وادكر وتفكر ورأى سبيل الرشد فاتخذه سبيلا وسبيل الغي فلم يتخذه سبيلا .

وبذلك يمتاز العاقل من الانسان وعن المجنون والصبي والحيوان ، فالحيوان أسير شهواته والعاقل من الانسان عليم بما يعقب الاسر من الاذلال وما يجر من الوبال وهنالك تبتدي داعية المجاهدة وتتولد في النفس حال تدعو للمقاومة والمناضلة فهذه الحال هي المسماة بالصبر الناجمة من العلم والهداية الداعية لترك الضلال والغواية إلا وأن العلم بمغبة الشهوات وغائلة اللذات باعث لقيام حال النيات بالأنفس وتلك الحال تثمر الأعمال فالعلم شجرة والأحوال أغصانها والأعمال أثمارها .

أسماء الصبر

الصبر فى الأخلاق كالحديد فى الصناعات والملح فى الطعام ، فلا ترى طاعة، ولا خلقاً حسناً إلا والصبرُ مفتاحه وعماده وقوامه ألا ترى كيف شمل الأعمال البدنية والأحوال النفسية فمن احتمل المرض والألم والجراح المصمية وقام بالأعمال الشريفة فى عبادة يقيمها أو زراعة يتقنها أو صناعة يحسنها أو تجارة يديرها أو إدارة ينظمها فهو من الصابرين فى النوعين . الاحتمال والأعمال .

العفة

ومن زكى نفسه بالتباعد عن مقتضى شهوتى البطن والفرج فهو العفيف ، حتى لا يطيع داعى اللهو والزينة ولا يدنو من المحرمات ، ومن تعالت نفسه عن الخضوع لنائبات الدهر سمى صابراً ، والا فهو الجازع والهلوع ، برفع الصوت وضرب الخد وشق الجيب .

ضبط النفس والبطر والمرح

وإذا لم تستفزه داعيات الغنى ، فهو الضابط لنفسه ، والا فهو البطر المرح .

الشجاع والجبان

وإن قاوم الأقران فى ساحة الحرب والميدان فهو الشجاع ، والا فهو الجبان وإن كظم غيظه ، ولزم السكينة عند اهتياج الغضب ، فهو الحليم والا فهو الأحمق السفيه .

كتم السر وإفشاؤه

وإذا أخفى الكلام لاقتضاء المقام ، فهو الكتوم للسر والا فهو المفشى للأسرار فان اطمأنت نفسه فلم تجزع على فضول العيش ، فهو الراضى والا فهو الحريص .

القناعة والشره

ومن اكتفى بالقليل فهو القنوع ، وضده الشره ، فأنت من هذا ترى ان الصبر ما ترك باباً من الأخلاق إلا ولجه ولا خصلة إلا قرعها ، فهو جدير بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن الايمان (هو الصبر) .

ولما كانت أحوال الانسان لا تخلو من مكروه يحتمله أو محبوب يشكر عليه ، روى ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال (الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر) ولما كان المصبور عليه إما شهوة وإما غضبا ، كان الصوم صبراً عن شهوتى البطن والفرج ، لا الغضب ولذا ظهر سر قوله صلى الله عليه وسلم (الصوم نصف الصبر) فيكون الصوم ربع الايمان ، وقد يراد بالايمان ما يشمل العلم والعمل ،ولا عمل إلا مع الصبر تركا أو فعلا ، فيكون الايمان راجعاً ليقين وعمل على مقتضاه ، فلذلك قال صلى الله عليه وسلم (مِنْ أقلِّ ما أُوتيتم اليقينُ وعزيمةُ الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار ، ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلى من أن يأتيني كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكني أخاف عليكم أن تفتح الدنيا عليكم بعدى ، فينكر بعضكم بعضاً وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ، ظفر بثوابه . ثم قرأ قوله تعالى (ما عندكم يَنْفَدُ وما عند الله باق)

وروى جابر أنه سئل صلى الله وسلم عن الايمان فقال (الصبر والسماحة) وقال صلى الله عليه وسلم (الصبر كنز من كنوز الجنة) وعن عطاء عن ابن عباس قال لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (أمؤمنون أنتم فسكتنا فقال عمر نعم يارسول الله . قال وما علامة إيمانكم قالوا نشكر على الرخاء ، ونصبر على البلاء ، ونرضى بالقضاء . فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة) وقال تعالى (وَالصَّابِرِينَ فى الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ الْبَأْس) أى المصيبة والفقر والحرب .

الصبر واحد وإنما اختلفت الأسماء لاختلاف المواطن ، كضوء الشمس يسطع

على الأشجار والأزهار ، والثمار فاختلفت الألوان ، لتعدد الأشكال ، واحذر أن تضل فى الألفاظ وارع المعانى واحذر شبهات الاصطلاحات الواردة .

الشجاعة

الشجاعه هى الأقدام على الأهوال مع الروية والتفكير ، ومن أقدم بلاروية أو أحجم ، وقد فاجأه العدو فليس بشجاع ، وإنما هو فى الأولى متهور وفى الثانية جبان ضعيف . الشجاعة أحد الأركان الأربعة ومنزلتها منها منزلة الجنود من الممالك ، والحصون من الأمصار ، ولكم تمدح شعراء الشرق والغرب بالشجاعة ، وحضوا عليها أممهم ، فالعظيم من لبس تاجها ، والوضيع من حرم فضيلتها ، وحيل بينه وبينها ، الرجل الضعيف القلب الجبان مهضوم الحق مقصوص الجناح ، لا يقضون له حاجة ولا يسمعون له قولا ، الجبان أشبه شىء بالدجاجة يؤكل لحمه وهو مهين ، والشجاع كالأسد يحترم ويحرم أكله ، وهو مصون ، وما من أمة فقدت شجاعتها واستسلمت ونامت على فراش الراحة الوثير إلا ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ، ذلك بأنهم قوم مستضعفون ، ألم تر إلى عمرو ابن كلثوم ، حين قالت هند أم عمرو ملك العرب لليلى بنت المهلهل بن ربيعة أخى كليب وائل أم عمرو بن كلثوم يا ليلى ناولينى الطبق كيف تحمس ابن كلثوم وقتله وقال فى معلقته .

أبا هند فلا تَعْجَل علينا ... وأنظرنا نُخبِّرْك اليقينا
بانا نورد الرايات بِيضاً ... ونُصدرُهُنَّ حُمراً قد رَوِينا
بأى مشيئةٍ عمرَو بنَ هندٍ ... نكون لقيلِكم فيها قَطِيناَ

ومنها

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ... ونَبْطِشُ حين نبطش قادرينا
بُغاة ظالمين وما ظُلِمنَا ... ولكنا سنبدأُ ظالمينا

أفرط وغلا هنا فى القوة الغضبية وتجاوز الحد كزهير وعنترة فيما سيأتى وهذا مذموم كالجبن .

الجبن مذموم والتهور مذموم والشجاعة الوسط وقال زهير :

ومن لم يَذُد عن حوضه بسلاحه ... يُهَدَّمْ ومن لا يَظلِمِ الناسَ يُظْلَمِ

ثم انظر كيف قتل جساس البكرى كليباً التغلبى ، بناقة سعد جارهم ، وكيف طلب التغلبيون من البكريين قتل جساس قاتل سيدهم ، فأخذت مُرَّةَ أباجساس العزةُ بالاثم ، وأبى تسليم القاتل ، فكانت الحروب الشعواء والداهية الدهماء ، وتفانى الحيان بكر وتغلب .

هذه صفة شجاعة العرب الجاهلية الأولى إذ كانوا يحمون الذمار ويدفعون العار ، ويوقدون النار ، ويحفظون الجار ، تلك فضيلة وأى فضيلة ذلك شرف وأى شرف ، فخر وأى فخر ، ولكنه مصحوب بالجهل تابع لنزغات الشيطان ، ناصر للزور والبهتان ، فكانت الحاجة داعية إلى ما يقوم معوجها ، ويصلح فاسدها . ولو تبصرت أحوال بلادنا اليوم لرأيت الحمية فيها جاهلية ، والنصر تابعاً للعصبية لا للعدل فى القضية ، فترى الناس سكارى فى تشاجرهم وما هم بسكارى ولكن الجهل عظيم .

فنحن أحوج إلى عقل يقومنا ، وتمسك بالدين يرجعنا إلى الحق والصواب .

ألا تتعجب كيف جاء القرآن فوجه شجاعة العرب إلى الوجهة العامة والفضيله الشريفة ، فقال تعالى (ونضعُ الموَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلاَ تُظلمُ نَفسٌ شَيئًا وَإن كانَ مِثقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتينَا بِهَا وَ كَفَى بِنَا حَاسِبِين) وقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بالقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلى أنفسكم) ولقد مدح الاعتدال فى القوة إذ قال : (أَشداءُ عَلى الكفَّار رُحَمَاءُ بَينَهُمْ) ونفر من الظلم . فقال (فَتلكَ بيُوتُهمْ خَاوِيَة بمَا ظَلَمُوا) بذلك ذهبت تلك الحمية حمية الجاهلية الأولى ، الحمية المكانية الوقتية واستبدلت بأحسن منها وهى الشجاعة التى بها دوخوا المعمورة شرقا وغربا

وقد ذم الله رذيلة الجبن فقال : (وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا) ما أشأم أيام الأمة الخائرة العزيمة الضعيفة القوى ، الميتة الصبر تضاحكها الأيام قليلا ، وهم على أرائك الراحة متكئون ، وتبسم لها ثغور الزهر على أشجار الحنظل فى ساحة العيش الهنى ، حتى إذا وقعت الواقعة ، وقرعت القارعة وحكمت القنا والقضب فى أعناق الرجال ، عبست الأيام بعد ابتسامها ، وذاقوا مر الحنظل فقطع أمعاءهم بعد أن راقهم منظره الزاهر ، وأظلهم ورقه الناضر ، فلما نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ. فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ رضوا بالظلم واستناموا للخسف فأصبحوا فى ديارهم صاغرين

ليست الشجاعة قاصرة على القتال والذب عن البلاد بالحرب كلا فليس يتم للناس عمل إلا بقوة القلب وتحمل المكروه فى قول الحق ، وما من عالم إلا ابتلى بمن يشنؤه .

لن ينقض بنيان البدعة فتقام على أنقاضه قصور السنه إلا بقول الحق ولو كره الحاسدون . ولن تموت الرذيلة وتحيا الفضيلة إلا إذا قاوم المصلحون تلك العقول الجامدة ، وهزموا صفوف تلك النفوس الخامدة .

ولعمرك أن الشجاعة فى مقال الحق لأعلى منارا وأرفع شأنا وأشرف مثالا من اقتحام الهيجاء ، والحرب قائمة والرماح مشرعة ، والسيوف مصلتة ، إلا أن العالم بقوله يصلح الألوف والألوف . ولذلك كان الصديقون أعلى من الشهداء مقاما وأقرب إلى الأنبياء محلا .

ألا أحدثكم أيها الأذكياء بحديث السلف الصالح رضى الله عنهم ورضوا عنه إذ كانوا يصدعون بالحق وبه يعدلون . كأبى بكر الصديق وطاووس اليمانى وسفيان الثورى وعطاء بن أبى رباح وأبى حازم وعمر بن عبد العزيز وغيرهم أولئك

الذين هدى الله فقالوا الحق وصدقوا فى القول ولم يخافوا لومة لائم ولم يخشو إلا الله

روى عن ضبة بن محصن العنزى ، قال كان علينا أبو موسى الأشعرى أميراً بالبصرة فكان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وأنشأ يدعو لعمر رضى الله عنه قال فغاظنى ذلك منه فقمت اليه فقلت له أين أنت من صاحبه تفضله عليه فصنع ذلك جمعاً ثم كتب إلى عمر يشكونى يقول إن ضبة بن محصن العنزى يتعرض لى فى خطبتى فكتب اليه عمر أن أشخصه إلى ، قال فأشخصنى اليه فقدمت اليه فضربت عليه الباب فخرج إلى فقال من أنت فقلت أنا ضبة فقال لى لامرحباً ولاأهلا فقلت : أما المرحب فمن الله و أما الأهل فلاأهل لى ولا مال فبماذا استحللت ياعمر أشخاصى من مصرى بلا ذنب أذنبته ولا شىء أتيته فقال ما الذى شجر بينك و بين عاملى قال قلت الآن أخبرك به أنه كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم أنشأ يدعو لك فغاظنى ذلك منه فقمت اليه وقلت له أين أنت من صاحبه تفضله عليه فصنع ذلك جمعاً ثم كتب إليك يشكونى قال فاندفع عمر رضى الله عنه باكياً وهو يقول أنت والله أوفق منه وأرشد فهل أنت غافر لى ذنبى يغفر الله لك قال قلت غفر الله لك يا أمير المؤمنين، قال ثم اندفع باكياً وهو يقول والله لَلَيلَةٌ من أبى بكر و يومٌ خير من عمر وآل عمر فهل لك أن أحدثك بليلته و يومه قلت نعم قال أما الليلة فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج من مكة هاربا من المشركين خرج ليلا فتبعه أبو بكر وجعل يمشى مرة أمامه ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن يساره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هذا يا أبا بكر ما أعرف هذا من أفعالك فقال يا رسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك وأذكر الطلب فأكون خلفك ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لا آمن عليك قال فمشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة على أطراف أصابعه حتى حفيت فلما رأى أبو بكر أنها قد حفيت حمله على عاتقه وجعل يشتد به حتى أتى فم الغار فانزله ثم قال والذى بعثك بالحق

لاتدخله حتى أدخله فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك قال فدخله فلم يرَ فيه شيئاً فحمله وأدخله وكان في الغار خرق فيه حيات وأفاع فألقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذيه وجعلن يضربن أبا بكر في قدمه وجعلت دموعه تنحدر على خديه من ألم ما يجد ورسول الله صل الله عليه وسلم يقول له يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله السكينة عليه والطمأنينة لأبي بكر فهذه ليلته

وأما يومه فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب ، فقال بعضهم نصلي ولا نزكي فأتيته لا آلو نصحاً فقلت ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تألف الناس وارفق بهم ، فقال لي أجبار في الجاهلية خوار في الاسلام ؟ فبماذا أتألفهم ، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتفع الوحي ، فوالله لو منعوني عقالا كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقاتلتهم عليه قال فقاتلنا عليه فكان والله رشيد الأمر فهذا يومه .

ثم كتب إلى أبي موسى يلومه .

أما طاووس اليماني فانه كان من التابعين وكان من حديثه مع هشام بن عبد الملك ، إذ أتى المدينة أن قال له هشام عظني ، فقال سمعت من أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يقول ، إن في جهنم حيات كالقلال وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته

وأما سفيان الثوري ، فقد كان من حديثه أنه لما دخل على أبي جعفر المنصور قال له أبو جعفر ارفع إلينا حاجتك ، فقال انما نزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصارَ ، وأبناؤهم يموتون جوعا فاتق الله ، وأوصل إليهم حقوقهم ، فطأطأ المنصور رأسه

وأما عطاء بن أبي رباح ، فانه لما دخل على عبدالملك بن مروان ، وهوجالس على سريره وأجلسه معه عليه ، قال ما حاجتك ؟ فقال يا أمير المؤمنين اتق الله في

حرم الله وحرم رسوله فتعهده بالعمارة ، واتق الله فى أولاد المهاجرين والأنصار ، فانك بهم جلست هذا المجلس ، واتق الله فى أهل الثغور فانهم حصن المسلمين وتفقد أمور المسلمين فانك وحدك المسئول عنهم .

وأما أبو حازم فانه لما سأله سليمان بن عبد الملك بقوله أى الكلام أسمع أجابه قول الحق عند من تخاف وترجو

قال فأى المؤمنين أخسر قال رجل خطا فى هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنياه

وأما عمر بن عبد العزيز فانه كان يوماً مع سليمان ابن عبد الملك فسمع سليمان صوت الرعد فجزع ووضع صدره فى مقدمة الرحل قال عمر هذا صوت رحمته فكيف اذا سمعت صوت عذابه .

قيل أن عبد الملك بن مروان خطب يوما بالكوفة فقام إليه رجل من آل سمعان فقال مهلاً يا أمير المؤمنين اقض لصاحبي هذا بحقه ثم اخطب . فقال وما ذاك فقال إن الناس قالوا له ما يخلص ظلامتك من عبد الملك إلا فلان فجئت به إليك لأنظر عدلك الذى كنت تعدنا به قبل أن تتولى هذه المظالم . فطال بينه وبينه الكلام فقال له الرجل يا أمير المؤمنين إنكم تأمرون ولا تأتمرون وتنهون ولا تنتهون وتعظون ولا تتعظون أفنقتدى بسيرتكم فى أنفسكم أم نطيع أمركم بألسنتكم ! فان قلتم أطيعوا أمرنا واقبلوا نصحنا فكيف ينصح غيره من غش نفسه وإن قلتم خذوا الحكمة حيث وجدتموها واقبلوا العظة ممن سمعتموها فعلام قلدناكم أزمة أمورنا وحكمناكم فى دمائنا وأموالنا أو ما تعلمون أن منا من هو أعرف منكم بصنوف اللغات وأبلغ فى العظات . فان كانت الأمانة قد عجزت عن اقامة العدل فيها فخلوا سبيلها واطلقوا عقالها يبتدرها أهلها الذين قاتلتموهم فى البلاد وشتتم شملهم بكل واد أما والله لئن بقيت فى يديكم إلى بلوغ الغاية واستيفاء المدة لَتَضْمَحِلَّنَّ حقوق الله وحقوق العباد فقال له كيف ذلك فقال لأن من كلمكم فى

حقه زجر ومن سكت عن حقه قهر فلا قوله مسموع ولا ظلمه مرفوع ولا من جار عليه مردوع و بينك و بين رعيتك مقام تذوب فيه الجبال حيث ملكك هناك خامل وعزك زائل وناصرك خاذل والحاكم عليك عادل فأكب عبد الملك على وجهه يبكى ثم قال له فما حاجتك فقال عاملك بالسماوة ظلمنى وليله لهو ونهاره لغو ونظره زهو فكتب اليه باعطائه ظلامته ثم عزله .

قال الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين حدثنا يزيد بن هارون قال أخبرنا هشام بن حسان عن الحسن أن زياداً بعث الحكم بن عمرو على خراسان فأصاب مغنما فكتب إليه زياد أن أمير المؤمنين معاوية كتب إلى يأمرنى أن أصطفى له كل صفراء و بيضاء فاذا أتاك كتابى هذا فانظر ما كان من ذهب وفضة فلا تقسمه واقسم ما سوى ذلك

فكتب إليه الحكم

انى وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين ووالله لو أن السموات والأرضَ كانتا رتقاً على عبد فاتقى اللهَ لجعل اللهُ له منهما مخرجاً والسلام ثم أمر المنادى فنادى فى الناس أن اغدُوا على غنائمكم فقسمها بينهم

و إنا نحمد من ضبة ومن بعده صدقهم ولكن لانشاد الناس مشادتهم قل الحق وتلطف ولا تكن فظاً فلكل مقام مقال وللكلام مواطن

ولقد جرب الناس قديماً القول فرأوا أنجعه فى العقول ألطفه وأنفعه فى النفوس أجمله : قال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام (فقولا له قوْلا ليِّناً لعلَّهُ يتذكَّرُ أوْ يَخشَى) وقال تعالى على لسان نبيِّه عليه السلام (وأنا أوْ إيَّاكُمْ لعلَى هُدًى أوْ فى ضلالٍ مبين)

فإياك أن تقلد كل ما تسمع بل اعرض كل شىء على كلام الله وسنة ورسوله صلى الله عليه وسلم وتذكر قول الله تعالى (ولو كنتَ فَظاً غليظَ القلبِ لانْفضُّوا مِن حوْلِكَ فاعْفُ عَنْهُم وَاسْتَغْفِرْ لهم وشاوِرْهُمْ فى الأمْر) وإذا قرأت فى تاريخ

اليونان أن سولون الحكيم قابل اكرسيوس فى مملكة ليديا وهو فى أبهته وسلطانه وعظمته متجملا بأفخر الثياب متحلياً هو وأعوانه وأرباب دولته بأنواع الحلى الملكية والجواهر الغاليه الثمينة فقال اكرسيوس لسولون هل رأيت أحداً يلبس ملابسى فقال نعم الديوك الأهلية والبرية والطاووس فغضب ثم قال هل رأيت أحداً أسعد منى فقال الملك طيلوس من أهل مدينة أثينا مات سعيداً قرير العين بنصرة وطنه ولقد حزن عليه سائر البلاد فهذا أسعد منك ويليه اخوان اسم أحدهما كليو بيس واسم الآخر بيطون ، كانا فاضلين صالحين أكرما أمهما الصالحة حتى أنهما جرا عربتها إلى المعبد فدعت لهما وأثنى الناس عليهما فماتا صالحين مرضياً عليهما من الله والناس وعند ذلك غضب اكرسيوس وظن أن سولون مجنون ثم عرف له فضله بعد حين إذْ وُضِعَ على النار ليحرق فصرخ بقوله (سولون) فزحزح عن النار وسأله الملك عدوه فأخبره بما جرى له مع سولون فانخلع قلبه وأطلقه

وإذا سمعت عن ذلك الحاكم الهندى بيدبا مؤلف كتاب كليلة ودمنة ، وقد دخل على ملك الهند وأغلظ له فى القول وقال لقد ظلمت الرعية ، وأضعت ملك آبائك وخربت البلاد ، وأضعت العباد فحبسه ثم أطلقه وولاه الملك بعد حين فاعلم أن هؤلاء قالوا الحق ووطنوا أنفسهم على المكارة فخذ من النار ضوءها واعتدل فى قولك وتابعهم فى قول الحق واصلاح شأن الأمة واعدل عن الشتم فذلك خير وأحسن تأويلا واقرأ قوله تعالى (وقُلْ لِعبادى يقولوا التى هىَ أحسنُ إنَّ الشيطانَ ينزغُ بينهم إن الشيطانَ كان للإنسان عدوًّا مبيناً) وقوله (وقولوا للنَّاسِ حُسناً) وقوله (ولا تستوى الحسنةُ ولا السيِّئَةُ ادْفعْ بالتى هىَ أحْسَنُ فاذا الذى بينكَ وبينهُ عَدَاوَةٌ كأنهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ وما يُلقَّاها إلا الذين صبروا وما يُلقَّاها إلا ذو حظ عظيمٍ) وقوله تعالى (وَلْيَتَلَطَّف)

واعلم أن الأطباء انما يضعون الدواء المر فى غلاف ليسهل تعاطيه فلنكن أطباء

صالحين

وإذا رأيت نفسك خائرة القوة هيابة تفر من الظلام وتفزع من الأحلام فسلط على الجبن ضده وأيقظ النفس من خمولها وخمودها وحركها إلى الأنفة والشمم والأباء وعدم تحمل الضيم وافعل ما حكاه ابن مسكويه عن بعض المتفلسفين أنه كان يتعمد مواطن الخوف فيقف فيها ويحمل نفسه على المخاطرات العظيمة بالتعرض لها ويركب البحر عند اضطرابه وهياجه ليعود نفسه الثبات فى المخاوف ويهيج منها القوة التى تسكن عند الحاجة الى حركتها ويخرجها عن رذيلة الكسل ولواحقه .

ولقد كنت أنا بالجامع الأزهر الشريف أقرأ هذا الكتاب فأخذت أعلم نفسى علم الشجاعة كما فى ابن مسكويه

وما أحسن مدارس التعليم فليكن لفضيلة الشجاعة التعليم العسكرى ، وبعض الأمم المتحضرة تعلم أبناءها عموما النِّظَامَ العسكرى كما فى سويسرا ألا فلتفعل مصر ذلك كما أوضحنا فى كتابنا نهضة الأمة وحياتها الذى قصدت به نظام الأمة علماً وسياسة وعملاً

فلعمرك أن الجبن سجن المترفين ، قيدهم بأغلال وصفدهم فى الأدهم ، ولعلكم قرأتم كتب السبق والرمى فى علم الفقه والناس غافلون لا يعلمون لم وضع هذا الباب وما أغفل المسلمين اليوم عن هذه الفضيلة

فاذا لم توقظ الحكومات الناس فليقم الأفراد بتربية أبنائهم ليدلوهم على فطرهم الانسانية فذلك أبقى للأمم وأحسن وأشجع للأفراد فاذا ماتت الشجاعة حل محلها الجبن واستولى الترف وحاق بالناس الهلاك (وإذا أرَدْنا أن نُهْلِكَ قَرْيَةً أمرْنا مُتْرَفِيها ففَسَقُوا فيها فَحَقَّ عليْها القولُ فدمَّرْناها تدمِيراً)

أسئلة

(١) أذكر شجاعة العرب الجاهلية (٢) وازن ما بين حال المصريين اليوم وحال العرب الجاهلية فى الشجاعة (٣) ماذا ترى فى الشجاعة الوقتية المكانية أهى نافعة للأمم (٤) وماذا يجب على مربى الأمة المصرية فى شجاعتهم

(٥) وازن حال انتقال الأمة العربية من حمية الجاهلية بحال تربيتنا المصرية الآن

(٦) ماقصة ضبة مع عمر بن الخطاب وما ترى فى شجاعته الأدبية

(٧) أعط فكرة عامة عن الشجاعة الأدبية فى صدر الاسلام

(٨) وازن ذلك بحالتنا اليوم (٩) مادواء الجبن (١٠) هل تستنتج من الأبواب السابقة فى الكتاب أسباب الشجاعة وعلاجا آخر للجبن

(١١) إذا قسا المعلم على التلاميذ فماذا تكون شجاعتهم (١٢) إذا قهرت الحكومة الأمة وقست عليها فماذا تكون حال الأمة (١٣) ماذا يجب على المعلمين وعلى الحكام حتى لا يميتوا الشجاعة

الكرم والبخل

من أدى من ماله واجب الشرع وواجب المروءة اللائقة به فهو الكريم ومن قصر فيما وجب عليه منهما فهو البخيل فمن شاحّ فى المحقرات وضايق فى الصغائر والهنات مع الخدم أو أطال فى مشاحنة عياله وأهله أو قريبه على نفقة وسم بالبخيل ولا قيد يحصر أقسام البخل وأوصاف البخلاء إلا العادة والعرف فلقد ينفق الرجل كثيراً ويشح بالقليل فيحسب بخيلا فانه قصر حيث ينبغى الايفاء ومنع حيث يجدر الاعطاء

لا كرم إلا حيث يكون البذل محبوباً والعطاء مرغوبا والا فتكرم وتكلف

سبب البخل غلبة الشهوات وطول الأمل ورحمة الولد وخوف الفقر وقلة الثقة بمجيء الرزق وعشق المال لذاته

من غلبت عليه شهواته فليعلم أنها نار تلظى مهما أمدها بالوقود احتدم وطيسها

وغلت مراجلها وارتفع لهبها وقالت هل من مزيد ومن طال أمله فليتذكر الأخوان والأقران الذين طمعوا كما طمع وجمعوا كما جمع ثم اختطفهم المنون وهم عن التذكرة معرضون ومن جمع للولد فليعلم أنه إن يكن من المؤدبين المتعلمين فقد عاش كما يحيا المجتهدون ولله فى خلقه شؤون وإن كان ممن ارتطموا فى أو حال الشهوات وباعوا أنفسهم للموبقات وعكفوا على اللذات فالمال طامة كبرى وانة عظمى ومجلبة لشقائه وزيادة فى بلائه

ومن خاف الفقر وقلت ثقته بالله عز وجل فليكشف الغطاء عن عينه وليتفكر فى الحشرات والطيور والبهائم وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ومن أصبح عاشقاً للمال مغرماً بجمعه كان كالشيخ الهرم الذى جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده تحت أطباق الثرى حتى لا يرى

فلقد علم أنه لا ينفعه فى حياته ولا ينتفع به بعد مماته ومن ابتلى بهذا الداء فقلما يرجى علاجه

﴿ وقد قلت ﴾

وماهذه الدنيا سوى البرق لامعاً　　فهذا به يلهو وذا رائد القطر

وما هذه الدنيا سوى الروض يانعاً　　وأثمارها حسن الأحاديث والذكر

فمن كرمت نفسه وأنفق ماله انطلقت الألسنة بمدحه وتناقلت الركبان ثناءه وجنى ثمرات عمله كرتين فى الدنيا والآخرة كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فمن أنفق فلنفسه يرجع الثناء وله يكون الهناء ومن قتر فهو المحروم المبعد عن الله والناس ها أنتم هؤلاء تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فى سبيل الله فمنكم من يَبْخَلُ ومن يَبْخَلْ فانما يَبْخَلُ عن نفسه

وتذكر ماخاطب به حاتم ماوية بنت عفزر

أماويُّ إن المالَ غاد ورائحُ　　ويبقى من المال الأحاديثُ والذكرُ

أماويُّ إنى لا أقول لسائلٍ　　إذا جاء يوماً حلَّ فى مالىَ النُّكْرُ

أماوىُّ إما مانعٌ فمبيّنٌ وإما عطاءٌ لا ينهنهه الزجر

أماوىُّ ما يغنى الثَّراء عن الفتى إذا حشرجَتْ يوماً وضاق لها الصدرُ

أماوىُّ إن يصبح صداى بقفرة من الأرض لا ماء لدى ولا خمرُ

ترَىْ أن ما أنفقت لم يك ضرنى وإن يدى مما بخلت به صِفرُ

لقد علم الأقوامُ لو أن حاتِماً أراد ثَراءَ المالِ كان له وفرٌ

النفوس الكريمة تريد أن تكون شموساً مشرقة وأنهارا فياضة فيجودون بالموجود من صدقة ويألمون لقلة ذات اليد حرصاً على الكرم قال الامام الشافعى

يا لهفَ قلبى على مالٍ أفرقه على المُقِلِّين من أهل المروءات

إن اعتذارى إلى من جاء يسألنى ما ليس عندى لمن إحدى المصيبات

ومما يسر عند السمر ويحلو فى البدو والحضر ما يروى أن أبا تمام دخل على ابراهيم بن شكلة وامتدحه بأبيات وكان عليلا فتقبلها وأمر حاجبه أن يبوئه مبوأ صدق ويعد له نزلا ومرحباً سهلا حتى يبل من مرضه فأوحشه طول المقام فكتب إليه يقول :

إن حراماً قبول مدحتنا وترك ما يرتجى من الصفد[١]

كما الدنانير والدراهم فى الـ ـبيع حرام إلا يدا بيد

فلما وصل البيتان إلى ابراهيم قال لحاجبه كم أقام بالباب قال شهرين قال أعطه ثلاثين ألفاً وجئنى بدواة فكتب إليه يقول

أعجلتنا فأتاك عاجل برنا قُلاًّ ولو أمهلتنا لم نقلل

فخذ القليل وكن كأنك لم تقل ونكون نحن كأننا لم نفعل

إذا لك خير أم من سار مثلا فى الآخرين ونكالا فى الغابرين كمثل أعرابى أقبل يطلب رجلا وبين يديه تين فغطى التين بكسائه فجلس الأعرابى فقال له الرجل هل تحسن شيأ من القرآن قال نعم فقرأ والزيتون وطور سنين . فقال : وأين التين قال هو تحت كسائك .

(١) العطاء

(١) قبول الاخلاق للتغير واختلافها فى هذا القبول

الخلق هو كل صفة تقوم بالنفس تصدر عنها الأفعال الفاضلة أو الناقصة وصفات الانسان قسمان قسم لا يقبل التغير كالصفات الجبلية الفطرية من طول وقصر وحسن وقبح وقسم يقبل التغير وهو الأخلاق كالبخل والكرم والشجاعة والجبن وأمثالها مما عرفته . لو وضعت حبة أو نواة فى أرض طيبة وأنزلت عليها الماء لرأيتها اهتزت وربت وابتهجت بها الأرض وزينت فهذا تغير فى البذر والنوى بتربيتهما

ونرى الناس يؤدبون دواب الحمل والركوب والعمل بآداب تغير طباعها كالخيل والحمير والبقر والفيلة فهذه تقبل التأديب والتدريب وإذا ثبت وصح تغير الصفات والأحوال فى النبات والحيوان فأحرى به الانسان .

كيف لا ونحن نشاهده كل حين ها نحن نرى الولدان يتركون الأخلاق التى اعتادوها والرذائل التى اكتسبوها والآثام التى اقترفوها بين حشمهم وخدمهم ومع جيرانهم وأبناء أزقتهم إذا انتظموا فى سلك التلاميذ وتلقوا الأدب عن المؤدبين وكأين من طالب علم نبذ الهجر من القول والقحة ومعاشرة السفهاء التى كان لها ملازماً وبها مغرماً أيام جهالته وزمن لهوه وبطالته .

واضرب لك مثلا تلميذين حضرياً وقروياً وآخرين من أترابهما لا يتعلمان فترى للأولين من الأخلاق والآداب ما لا يتحلى به الآخران ولا يتصفان به مع تقارب النشأة وتشابه التربية الأولى

فهل لذلك سبب إلا أن التعليم أثر فى الأولين وبقى الآخران مهملين .

بل ما أولئك الجند المدربون ولا القواد الماهرون ولا الأمراء المؤدبون إلا

---

(١) هذا الباب أخر سهوا وحقه أن يكون بعد باب المؤثرات فى الخلق فى أول الكتاب فليلاحظ

أناس خلعوا ملابس عاداتهم التى ألبستها إياهم أيام الصبا وحلاهم التأديب بأجمل منها ومن تنقل فى البلاد وسار فى الأقطار وعرف بالاختبار وجالس أصناف الناس وكان ذا بصيرة فلكم من خلق يجتنبه وكم من خلق يكتسبه . واعلم أن الكتاب أحد الجليسين فاختر لنفسك ما يحلو من جيد ورديء .

كم من امرىء كان صالحاً فأفسده صاحب فاسق أو كتاب ومن ذا الذي يقرأ ديوان عنترة أو روايته ثم لا يكون شجاعاً وقلبه قوياً .

إن قراءة الكتب لتفعل فى العقول فعل المخالطة . لقد أخبرنى فتى أثق به انه كان يفزع للنبأة ويفر للوثبة ويزعجه الشبح المنصوب حتي إذا قرأ رواية عنترة استبدل الشجاعة بالجبن والاقدام بالاحجام .

وإنى لست بهذا أحمد ما فى تلك القصة من السخافات وإنما أحمد ما فيها من علو الهمة والاقدام .

فاجتنب مخالطة الفاسقين وعاشر أهل الكمال ولا تقرأ من الكتب ما يهيج الآثام واصطف منها ما خلص من شائبة الجهالات وخطل الأوهام وخطر الفسوق والعصيان .

﴿ هل الناس يختلفون فى قبولهم هذا التغيير ﴾

إن للجسم صحة ومرضاً واعتدالا وانحرافاً هكذا تكون النفس صحة النفس حسن الخلق ومرضها سوء الخلق .

وكما أن من المرض ما يسهل زواله ومنه ما لايسهل استئصاله ويستعصي على الطبيب شفاؤه هكذا سوء الخلق منه ما يسرع ذهابه ومنه مايعسر اقتلاعه ويعجز طبيب النفس عن مداواته بعقاقير الآداب ومثل هذا الخلق نادر ولكن أكثر الأخلاق تقبل التغيير وليست الناس فى قبول التغيير سواء

إنهم يختلفون طباعا ويمتازون سجايا وهم أصناف لايحصرون ولكنهم لايعدون فى ذلك أربعة أقسام ففريق سهل قياده سريع رجوعه قريب توبته وهو الذى جهل

ذنبه فاقترفه فاذا ذكرته ذكر وهو بعد لم تتمكن من نفسه خطيئته ولم يدم خطله في عمله كمثل الصبيان فى مبدأ أمرهم والعامة الغافلون الذين يفعلون ما لا يعلمون قبحه من الخطأ فاذا علموا رجعوا وهم نادمون و إلى هؤلاء الاشارة بقوله تعالى (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فاولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما . وفريق يعلم قبح ما جناه فيرتكبه وهو الذى نسميه بالأحمق هذا أصعب من سابقه يحتاج إلى عناية وكبح جماح وشدة تهذيب وهذا الفريق قال الله فيه وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيم)

وفريق أحاطت به خطيئته ودامت حوبته وتمكنت فى نفسه زلته فلازمته ملازمة الظل للشبح وألبسته لباس الذلة والعار بالعادة الراسخة بطول الايلاف كما نشاهده فيمن اعتاد تدخين التبغ أو شرب قهوة البن أو أدمن المسكرات ومن هذه الطائفة أناس طال أنسهم بالغيبة أو أشربت نفوسهم حب أكل لحوم إخوانهم وهم عنهم غافلون. وآخرون لا يفتئون يتكلمون حقاً أو باطلا فغلبت ألسنتهم على عقولهم ورموا بها وراء ظهورهم كأنهم لا يعقلون وهذه الطائفة قليل رجوعها بعيد إقلاعها صعب تذليلها كما شاهدناه فيمن عرفناه من الناس .

ولذلك قيل ومن العناء رياضة الهرم . وقيل ومن التعذيب تهذيب الذيب . وهذه الطائفة وأن عز مطلبها وشق عليها رجوعها فليس لها فيما علمت بالتجربة ألا قوة الارادة وشدة العزيمة فالنفوس الانسانية إذا قويت إرادتها واشتدت عزيمتها لا يقف أمامها شيء ولا تفلها قوة وهي المعبر عنها بالصبر والعزيمة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب .

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى   وإن أطعمت تاقت وإلا تسلت

وقال ابن الفارض :

ونفسى كانت قبل لوامة متى   أطعها عصت أو أعص كانت مطيعتى

فالزمتها ما الموتُ أيسرُ بعضهِ   وهذبتها كيما تـكون مطيعتى

والفريق الرابع من احلولت له مراشف الذنوب وحلت فى عينه قبائح العيوب فاستحلى مرعاها وترك نفسه وهواها وأقام الحجج والبراهين على حسن نبذ العقل والدين فذلك لن يرجع عن ذنبه إلا إذا شاب الغراب وآب القارظان وقد قال الله عز وجل أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)وقال (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ)

ألا هل أنبئكم عن حال أقوام غيرت طباعهم وحسنت أخلاقهم وصلحت حالهم بعد فسادها لأمور طارئة وأسباب عارضة فى الجاهلية والاسلام هذا امرؤ القيس ابن حُجر الـكندى الجاهلى لقد قرأتم عنه ما أنزه قلمى عن ذكره واحفظ لسانى عن وصفه فغير طباعه وأحسن حاله شهامة عربية وشنشنة بدوية لما اغتال أباه بنو أسد وَاخترموا أجله وجرّعوه كأس الحمام وهو على كرسى ملـكهم وعرش سلطانهم فلما أن جاءه الرسول وهو يلعب النرد قال لا صحوَ اليوم ولا سكر غداً اليوْمَ خَمْرٌ وغداً أمر ثم خلع ما ألبسته الأيام من سوء العادة ورأس قومه وامتشق الحسام لأخذ الثار وحلف لا يشرب الخمر ولا يقرب النساء .

أقلع امرؤ القيس عن سوء عادته للحمية العربية والشهامة القومية بهمة عالية وعزيمة صارمة وحزم عظيم ولست بهذا أرضى طريقته وتجاوزه الحد ومغالاته فى الأخذ بالثأر .

ولـكن يعجبنى انصراف نفسه عن الدنايا وعلوها عن الرذائل ولأقص عليكم نبأ عظيم من الأكراد كان يقطع السبيل ، وينتهب الأموال حتى إذا انتهى إلى مكان فيه ثلاث نخلات إحداهن عاطلة من الثمر فرأى عصفوراً يلتقط شيئاً ويذهب به الى تلك النخلة وتكرر ذلك منه فصعد إليها فرأى حية عمياء فاغرة فاها والعصفور

يطعمها فاعتبر بما رآه وقال واحسرتاه لقد خسرت نفسى إذا كان العصفور خيراً منى وكيف يحسن إلى ما أمرت بقتله من الحيات وأنا أسيء إلى من أمرت بتكريمه من الانسان فأقلع الرجل عن عاداته للعبرة التى شاهدها والحكمة التى أبصرها .

رجع امرؤ القيس عن عادته بتأثير القوة الغضبية والكردى للحكمة العقلية والكتب مفعمة بأمثالها فى كل قرن وجيل والله يهدى إلى سواء السبيل

وهل لكم أن تعتبروا بما سأقصه عليكم من نبأ أمير مسلم فى القرن الرابع استدعى سنانا بن ثابت بن قرة الحرانى الطبيب بعد موت الراضى العباسى وشكا له أن الغضب أحاطت به خطيئه وملكته سورته حتى أنه يقتل البرآء ويسفك الدماء على أقل الذنوب وأصغرها فأرشده بالانتظار فى العقاب حتى تزول سورته وتذهب سكرته ففعل ما أمره وتمم ما أرشده له ودام على ذلك زمانا حتى حسنت أخلاقه وسكنت نفسه وصار حليما

انظر كتاب أخبار الحكماء ، واذكروا رجلا كان من أكابر اللصوص فأصبح بغتة من أفاضل الصالحين إذ اعتبر بابنته الصغيرة فرجع عن غيه وعاد إلى رشده ومن هذا الصالح ؟ هو مالك بن دينار

أسئلة

(١) هل يختلف الناس فى قبول تغيير الأخلاق (٢) لم سهل انقياد الصبيان والعامة (٣) هل يعسر اقتلاع جذور الخلق على العاصى العالم بقبح ذنبه ولماذا (٤) أى فريق من الناس يندر اقلاعه (٥) وهل من سبيل لاصلاحه (٦) من الذى يئس علماء الأخلاق من إصلاحه

القسم الثالث[1]

أخلاق عملية

النظام

النظام مظهر جميل فلتكن أعمالنا منظمة جميلة ، الشمس منظمة السير بحسبان والقمر والنجوم . هكذا النبات والحيوان وجسم الانسان ونظمه وموسيقاه فلننظم حركاتنا وكلامنا من مبدأ الحياة لنعتاده ولنرتب الأمتعة وسائر الأعمال فى المنزل في المدرسة فى الحقل . فى حانوت التجارة . فى كل شىء . لعلكم أيها الطلاب النجباء لتعجبون وتقولون ما لنا وما للنظام العام — دع العموم وخض بنا فى الأعمال المعروفة واشرح نظام المنازل والمدارس وأحوال الناس من المأكل والمشرب وغيرها .

أقول على رسلكم قفوا قليلا لأحدثكم بحديث رجل كان يعبد الله عز وجل فوق جبل شامخ الرأس وقد أنس بوحش الفلاة من الذؤبان العاوية والسباع الضارية وقد طافت به كواسر الطير وهو مغرم بربه عاكف على عبادته

ولم يكن ليبالي بثيابه البالية ولا بمواعيد غذائه الذى يسديه له المحسنون وليس لعبادته وقت محدود فبينما هو ذات يوم فى معبده وقد انفلق عمود الصباح إذا آنس طاووساً على شجرة فبهره جماله وحسنه ففكر فى حسن نقشه ورقشه المنظم وكيف يستيقظ هو وغيره من الطيور وقت الفجر وكيف نظمت أوقات نومها ويقظتها وكيف كان تغريد المغرد منها بكيفيات موزونة ونغمات مطربة تهيج القلوب وتسر النفوس وكيف يزدهى نور الصباح ونور الأزهار الباهر فى خلال الاشجار وقد هبت النسيم فغردت الأطيار ذات الجمال البهى والصوت الشجى

---

(١) هذا القسم يغلب فيه الأمور العملية والذى قبله الأمور العملية وفى كل علم وعمل

وحينئذ تبدت للعابد حال جديدة وقل . هذا فعل الله والله جميل فلأنظم أوقات غذائى و نومى و يقظتى وأسر كل من زرانى وأرتب ملابسى وسأفكر فى حسن تنظيمها وترتيبها فصار الرجل ظريفاً وسر به كل من رآه .

أما أنا فأقول لكم أنظروا إلى النيل وهو يجرى خلال أرضنا المصرية فنحرثها ونزرعها فتخرج كلأ وحباً

تأملوا كيف يتربص الفلاح شهور . أبيب ومسرى وتوت تلك الشهور التى يعم فيها الماء أغوار الأرض ونجودها .

لولا انتظام الشمس ما انتظم أمر النيل ولا انتظم أمر الفلاح ولا أعد رجال بلادنا للزرع عدته.

هأنذا قد أجملت لكم ذلك النظام الجميل العالى المؤثر فى أحوالنا باذن الله عز وجل فهلموا بنا ننظر أنواع ماتكون على الأرض فهو نتيجة اتقان النظام العلوى وهو أمس بحياتنا وأقرب لفهمنا . وأهم أنواعه النبات والحيوان . وما كان لى أن أعد لكم أنواعهما فلسوف تعلمون منهما طرفاً إن شاء الله تعالى فى هذه المدرسة

لا أشرح لكم نظام الأوراق والأشجار والأزهار والأثمار ولا عجائب أعضاء الحيوان ونظامها و إنما أقتصر لكم على نظام زهرة (الجزالية) التى تروها فى هذه المدرسة أمامكم .

ألم تروا كيف كونت من ورقات صفر صغيرات متناسقات منقوشة من أسفلها بدوائر قاتمة اللون مستديرات وداخلها أخرى بيض ناصعات : فانظروا نظام وضع الأوراق وترتيبها وتناسب طولها وتوافق عرضها وصفرتها واستدارتها وكيف كونت باتحادها دائرة عجيبة صفراء فاقعاً لونها تسر الناظرين وقلت :

عجبت لنقش الزهر كيف تنوعت بدائعه فيما يسمى حراليه
رقاق لطاف ناعمات طويلة مدورة الصفين بالنظم حاليه

نقوش بديعات تريك دوائراً بها نضرات بالمحاسن زاهيه
دوائر بيضاً فوق سود كأنها نجوم سماء فى سناهن باهيه
وترنو إلى الشمس المنيرة فى الضحى وتغمض عيناً فى الأصائل ساهيه
تقول وقد تاهت بفرط جمالها من الشفق الغربى صيغ جماليه
فما لرجال العلم عنى أعرضوا ومفتاح عقل العالمين ببابيه
وما لكم لا تفقهون محاسنى وقد علم الغربى سر طباعيه
ثغور ابتسام فى جمال وبهجة واسداء معروف لراجى عطائيه
وكم حشرات طاف طائف وفدها فكان قراها الشهد فى سوح داريه

أنا لا أطيل فى شرح هذا الجمال فما فى وجدانكم من الفرح به يغنى عن الإطالة ولأذكر طرفاً مما اشتمل عليه نظام الانسان لتستدلوا به على عجائب سائر الحيوان

إنكم تعلمون أن تحت الحجاب الحاجز عمالا تحول الطعام من حال إلى حال كالصفراء المفرزة من الكبد وكالمعدة وعصارتها وتعلمون أن الرئة والقلب فى الصدر هما القائمان بأمر نظام الدورة الدموية فالقلب مديرها والرئة منقية مافى الدم ولو قرأتم علم النفس لوجدتم لكل عمل من أعمالنا وعلم من علومنا أثاراً فى قسم من الدماغ مفصولة موزعة على سطحه داخل الجمجمة كما نظمت نقوش الزهرة وكما قسمت أعمال هضم الطعام ودورة الدم على أجزاء الجسم الانسانى (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)

قد آن لنا بعد ما نظرنا النظام الطبيعى العجيب أن نوجه عقولكم إلى الأعمال الحيوانية والانسانية وسأريكم يسيراً من نظام أعمال الحيوان ولأقتصر لكم على حشرتين اثنتين سمى باسمهما سورتان فى القرآن تنبيهاً على عجائبهما ألا وهما النحل والعنكبوت

النحل بناء ومهندس والعنكبوت غزال ونساج ومهندس

النحل يبنى من الشمع بيوتاً مسدسة متقنة الوضع لا خلل فى نظامها والعنكبوت تغزل خيوطها وتصنع شبكة عجيبة هندسية بها تصيد الذباب وغيره مما به حياتها

فالشمس بنظام والنيل بنظام والشجر والزهر بنظام والحيوان بنظام وللحيوان غريزة أودعها الله فيه تسيره بنظام (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ) هذا هو الترتيب العام فى العالم كما قال الله تعالى (الذى أحسنَ كلَّ شيءٍ خلقهُ وبدأَ خلقَ الانسان من طين) وصار بالصنع فى أحسن تقويم فلننظر الآن فى الإنسان ونقول

إذا أردت معرفة هذه العجائب والغرائب فاقرأ نظام العالم والأمم تر العجب العجاب وكذا جواهر العلوم وميزان الجواهر وجمال العالم. ولقد أفرغنا الجهد فى هذه الكتب تذكرة وتبصرة لكل مهذب ذكى

أحكم على الرجل والمدينة والأمة بالنظام. فكلما كان أتم مكاناً وزماناً وعملا ومقداراً كان صاحبه أقرب إلى السعادة على مقدار نظامه وبضدها تتميز الأشياء وسواء فى ذلك أحوال الأنفس كالتفكر، أم الأجسام كالملابس، أم الألسنة كالكلام وهو نثر ونظم وخطب أم الأفعال من أكل وشرب ويقظة ونوم وراحة وعمل وزراعة وصناعة وتجارة وأمارة أم المدينة كالشوارع والبيوت أم الدول كنظام الجيوش وحفظ الأمن فعلى نسبة علو النظام ترتقى الأمم كما كانت فهمت ولأفصل لك أربعة أمثلة من أعمال الانسان لتستدل منها على باقيها فأقول :

المثال الأول

الزراعة . رأيت فى مديرية الشرقية ضيعة لرجل عالم بالزراعة حسنة الوضع منظمة الطرق مزدهية الأشجار مغردة عليها الأطيار قد ربى فيها النحل والداوجن فآتت أكلها ضعفين فلو رأيت ثم رأيت نظاما وثمراً كثيراً ويحيط به كثير من الفلاحين الجاهلين وهم لا يشعرون ولولا ما فعل الفلاح المصرى من النظام بتقسيم

الحقل قطعاً وتقسيم خطوطه كما أسند الكتاب سطراً على سطر وتنظيمه بفطرته وبما ورثه عن آبائه ما أنتجت له الأرض ما يريد ولكنه نظام ناقص عما يجب فذكر نظام الزهرة وجسم الإنسان وبيوت النحلة واقرأ قوله تعالى : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) وقال (مَاتَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ) كأن الله لا يعطينا إلا على حسب الاتقان فى الأعمال وكلما قرب نظامنا من الوضع الالهى أعطانا عطاء حسناً وكلما قصرنا قل الخير والبركات

المثال الثانى

الصناعة — المراكب الشراعية الجارية فى النيل وقطار السكة الحديد لاتقدير فى السفينة لزمان سيرها ولا لمكان حطها وترحالها ولا لسرعتها لأنها تجرى بالهواء وهو لا ضابط له بأيدينا وقطار الحديد مقدر الزمان معلوم السرعة محتم العمل متقن الصنع مقدر الجرى

القطار أكثر نفعاً وأغزر ربحاً من السفينة الشراعية على نسبة التفاضل بين الصنعتين

مررت يوماً على رجل صاحب قهوة بجهة المنشية أحاط به آخرون من جوانبه وهم قد صفوا الكراسى ونظموا وكنسوا ورشوا أما هو فلا يعبأ بنظام ولا يبالى باتقان ولعمرك أن الفرق بين الرجلين كالفرق بين السفينة الشراعية والقطار فى المثال السابق اتقاناً وجمالا ومغنما وسعادة

المثال الثالث

التجارة.مر فى أحياء القاهرة واعتبر بدكاكين أحدهما فى شارع أمير الجيوش والثانى فى شارع الموسكى . ألم تر أن الأول فى الأكثر أقل نظاما من الثانى على النسبة بين صاحبيهما فهذا أقول ؟ أقول انى أقارن بين النظامين واحكم على الرجلين .

المثال الرابع

المكتبة الخديوية — فيها قريب من مائة ألف من الكتب كثيرة الحجرات ما أجمل نظامها . إن شئت فانطلق اليها واطلب كتاباً فما أسرع تسليمه إليك إلا حيا الله النظام ثم وازن هذا بمن عنده مائتا كتاب فقط لم يجعل لها نظاماً خاصاً فكم وقت يضيعه فى العثور على كتاب وَازِنْ وَوَازِنْ واحكم واقرأ قوله تعالى : (وَوَضَعَ الميزانَ أنْ لا تطغَوْا فى الميزانِ وأقيموا الوَزْنَ بالقِسْطِ ولا تُخْسِرُوا الميزانَ) وتذكر الزهرة وجسم الانسان وقس الأعمال بالأعمال

ترقى الأمم العالمة على الجاهلة بالنظام — فنظام أصغر العمل فى الأمم المتعلمة أرقى منه عند كثير من المثرين عندنا . زرعوا فى منازلهم الصغيرة البساتين . الصغيرة وقسموا أعمالهم وأوقاتهم ويقظتهم ونومهم ووزعوا نقودهم على أيام حياتهم فصلوا أمكنة المنازل فجعلوا حجرة النوم وحجرة الأكل وحجرة الاستقبال كما رأيت فى نظام أعضاء جسم الانسان

فحرام علينا أن نذر أعمالنا فوضى — حرام علينا ألاّ نحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب . قال ميمون بن مهران — لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه — وقال عمر رضى الله عنه حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا . وقال الامام الغزالي الساعات ثلاث ، ساعة مضت لاتعب فيها على العبد كيفما انقضت فى مشقة أو رفاهية ، وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدرى العبد أيعيش إليها أم لا ، ولا يدرى ما يقضى الله فيها ، وساعة راهنة ينبغى أن يجاهد فيها نفسه و يراقب ربه وأقول

اجعل للعمل وقتاً معيناً لا تحتقر الوقت القليل

الوقت قيمته ذهب . الوقت كالسيف ، دم على العمل كل يوم تر أثره بعد حين الأوقات فى الشرق ضائعة . عين وقت أكلك وميعاد زيارتك وغيرها تنل بركات الحياة .

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن عيش الغافلين يطيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غداً للناظرين قريب

فصل

الخلق قد يكون ناقصاً بالنسبة لقوم فضيلة بالنسبة لآخرين . وذلك كالخجل فانه فى المرأة حسن وهو موطن يسوقها إلى العفة وهو فى الرجل رذيلة . فلعمرك من راقب الناس ماتَ هما وفاز بالمعالى الجسور . الذى يخجل من اظهار الأعمال لايدفع عاراً ولا يذكى ناراً ولا ينفع جاراً فذاك الذى إن عاش لا يعتنى به وإن مات لم تحزن عليه أقاربه وكالزينة فان ازديادها فى النساء فضيلة وتوغل الرجال فيها نقيصة فان الله عز وجل ماز الصنفين وجعل الرجال قوامين على النساء يدافعون عن أوطانهم ويحمون ذمارهم ويدفعون العار عن الديار وقد حرمت الشريعة الغراء الحرير والذهب على الرجال فانه ترف والترف مادخل بلاداً إلا أفسدها ولا أم أمة إلا دمرها (وإذا أَرَدنا أن نُهلِكَ قريةً أمرْنا مُترَفِيها فَفَسَقوا فيها فحقّ عليها القولُ فدمّرناها تدميراً)

وقال الشيخ محيى الدين بن عربى

(١) ومن الأخلاق ماهو فى بعض الناس فضيلة وفى بعضهم رذيلة فمنها حب الكرامة وهو أن يسر الانسان بالتعظيم والتبجيل والمقابلة بالمديح والثناء الجميل ، وهذا الخلق محمود فى الأحداث والصبيان لأن محبة الكرامة تحثهم على اكتساب الفضائل . وذلك أن الحديث والصبى اذا مدح على فضيلة ترى فيه كان ذلك داعياً الى ازدياد الفضائل . وأما الأفاضل من الناس فان ذلك يعد منهم نقيصة لأن الانسان إنما يمدح على الفضيلة اذا كانت مستغربة منه . وإذا كان من أهل الفضل فليس ينبغى أن يسر بأن يستغرب ما يظهر منه من الفضائل وكذلك الاكرام والتبجيل اذا كان زائداً على استحقاقه فانه يجرى مجرى التملق والسرور

---

(١) هذا يتبع باب الفضيلة والرذيلة والسعادة فى القسم العلمى فليلاحظ

بالتملق غير محمود لأنه من جنس الخديعة ومنها حب الزينة وهو التصنع بحب البزّة والركوب والآلات وكثرة الخدم والحشم وهذا مستحسن من الملوك والعظماء والأحداث والظرفاء والمنعمين والنساء وأما الرهبان والشيوخ وأهل العلم وخاصة الخطباء والواعظين ورؤساء الدين فان الزينة والتصنع مستقبح منهم . والمستحسن منهم لبس الشعر والخشن والمشى والحفاء ولزوم الكنائس وكراهية التنعم . ومنها المجازاة على المدح وهو مجازاة من يمدح الانسان ويشكره فى المجالس والمحافل وهذا الخلق مستحسن من الملوك والرؤساء لأن ذلك يدعو الناس إلى مدحهم ويكسب الممدوح ذكراً جميلا يبقى على الدهر ومن فضائل الملوك والرؤساء بهاء ذكرهم الجميل . أما محبتهم سماع المدح مواجهة فذلك غير مستحب لأنه من جنس التملق وهو مكروه لأنه من قبيل الخديعة وأما ايثارهم انتشار ذكرهم ومدحهم وتداول الناس له وبقاؤه بعدهم فان ذلك ممدوح منهم فمجازاة المدح مستحسنة من الملوك ومنهم مستقبح وضار لأن ذلك يدعو إلى ذمهم . وذمهم يبقى أيضاً مدى الدهر فينشر لهم ذكراً قبيحاً وذلك مكروه للملوك والرؤساء . وأما أصاغر الناس فَمَحَبَّتُهُم جزاء المادح غير محمودة فانه إذا مدح الدنىء من الناس فانما يخدعه فاذا جاءه اعتقد انه استرق منه تلك الجائزة وكثير من الناس إذا مدحوا بما ليس فيهم يبادرون إلى مجازاة المادح فيكونون قد وضعوا الشيء فى غير موضعه وهم إذا صرفوا ذلك الشيء إلى الضعفاء وأهل المسكنة كان أجمل وأليق . ومنها الزُّهْدُ وهو قلة الرغبة فى الأموال والأعراض والادخار والقنية وإيثار القناعة بما يقيم الرمق والاستخفاف بالدنيا ومحاسنها ولذاتها وقلة الاكترات بالمراتب العالية واستصغار الملوك وممالكهم وأرباب الأموال وأموالهم وهذا الخلق مستحسن جداً ولكن من العلماء والرهبان ورؤساء الدين والخطباء والواعظين ومن يرغب الناس فى المعاد والبقاء بعد الموت أحسن . وأما الملوك والعظماء فان ذلك غير مستحسن منهم ولا لائق بهم لأن الملك إذا أظهر الزهد فقد صار

ناقصاً لأن ملكه لا يتم إلا باحتشاد الأموال والأعراض وادخارها ليذب بها عن ملكه وصار معدوداً من جملة النقص من الملوك الحائدين عن طريق السياسة

حاجة الناس إلى التعاون

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض و إن لم يشعروا خدم

انطلقت أنا وثلاثة شيوخ أمس فى القاهرة للرياضة خلف شاطىء النيل الغربى فخلالنا روضة ذات أشجار وأطيار وأزهار وأثمار وقد دنا وقت الأصيل والنسيم عليل

والريح تَعْبَثُ بالغُصُونِ وقد جرى ذهب الأصيل على لُجَيْنِ الماء

فأرسلنا النظرات تلو النظرات إلى تلك الخضرات المُدْهَامَّاتِ ومن ورائها الجبل الغربى وقد كساه الأصيل من ذهبه جلبابا وأفرغ عليه من لدنه جمالا و بهاء فترنحت أفئدتنا بالمعانى ترنح الأغصان بالنسمات هنالك تبدى أكبرهم سنا وأرسخهم فى العلم قدما ونرمز له بحرف (ا) وللثانى (ب) وللثالث (ج)

قال لى (ا) ما من أسبوع يمر إلا ولى فى هذه الرياض جولة ولم يكن لى من السرور والحبور ما أجده الآن بمشاركة الاخوان . ياليت شعرى ما السبب. المناظر هى المناظر ، والقلب هو القلب ، فقلت لأن الانسان مدنى بالطبع لا يتم له أمر إلا بالتعاون والتشارك والائتلاف ، سواء فى ذلك الضروريات والحاجيات والكمال والزينة

قال (ب) هذا مقال مغمض فاشرح لنا باختصار واضرب أمثالك مما نراه الآن وما نحس به فى الوجدان ولا تلق بنا إلى المرامى المهلكة والمفاوز السحيقة

فقلت لنضرب شجرة القطن لنا مثلا ولننظر اليست تحتاج إلى الماء ليسقيها وإلى الفلاح يقوم عليها ويجنى ثمرتها وإلى دواليب حالجة وأخرى ناسجة و إلى تجار يشترون وهم على السفن يركبون وفى بلاد أخرى يبيعون وآخرون يحملون الثياب المنسوجة إلى أنحاء المعمورة ومنها أكثر ثيابى التى ألبسها الآن فهى من البذر نابتة كما ترون وقد تولى الناس العمل فيها وتناولتها أيادى كثيرة وهاهو ذا القميص

من ثمراتها فانظروا و تعجبوا ، ولئن قلت لكم أنه لولا تعاون أمتى وسائر الأمم على سطح الأرض لم يكن هذا الثوب كما ترون لم أكن مبالغاً

ولأبين لكم أبسط المسائل وهو الماء الساقى لهذا القطن لن ينتظم أمره فى ديارنا إلا بالهندسة والمهندس لابد له من مدرسة والمدرسة تمد غيرها و يمدها سواها من مدارس الشرق والغرب وتلك المدارس فى حكومات منظمة وأوضح من هذا الفاس التى بها يعملون لابد لها من حديد وخشب ونجار وحداد والحديد من المعدن والخشب من الشجر والحديد اجتلب من ممالك أخرى لولا عمالهم ماوصلنا الحديد

ليس لى أن أطيل القول فصغيرات الأمور وكبيراتها تتوقف على تعاون الناس

ومثل الضروريات كالماء الذى نشرب به والقوت الذى نأكله ومثل الحاجيات الادم وجودة النوع كالقمح وكالدواء ومثال الكمالى التحلى بالعلوم والمعارف والمسرات كحالنا اليوم ومثال الزينة نقش الملابس والتحلى بالذهب والأحجار الثمينة ولن يتم للانسان واحد منها إلا بالتعاون

(ج) فهل يتسنى معرفة هذه الأربعة فى ملابسى قلت نعم وجود الملبس ضرورى ولو من الخيش وكونه من نوع مقبول كالقطن حاجى . وتنسيقه على نسق أقرانك بأن يكون قباء مثلاً كما لى . ونقشه بهذه الألوان زينة .

قال (ا) على ذلك نحن الآن فى حاجة لسائر الأمم لا لأمتنا فقط ذلك عجيب إذن سائر الناس متعاونون و إن تناءت ديارهم واختلفت دولهم .

إنهم ألبسونى هذا الثوب إنهم جميعاً لى خادمون فلا مناص من حب سائر الناس وترك أذا هم قلت نعم قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

الظلم

الظلم مجاوزة الحد فى الأعمال والميل عن أوساط الأمور . قد سبق لك القول إن بنى آدم متعاونون لا يتسنى لهم طعام أو لباس أو علم بغير التعاون وقد نصب الله لهم ميزانه وهو العدل فى كل شىء ولكنهم خدعتهم الشهوات فكان كثير منهم ظالمين و بالظلم يختل نظام الحكومات والمنازل والأشخاص . لست فى حاجة إلى تذكيركم بالظلم المعروف بين الناس وهو أخذ المال و إلحاق الأذى والضرر بالأنفس .

فلقد تبينتم القول فيه عند الكلام على الشجاعة وعرفتم ما قرره العلامه ابن خلدون ولا يعد وحاصله ما يأتى :

ظلم الرعية يذلها و يضعفها و يثبت ملكة الجبن .

الظلم يقعد بالرعايا عن العمل لما يذهب بالأمل فيثاقلون إلى الأرض و يتباطئون و ينامون عن العمل لما يرون من ذهاب نتائج كسبهم فلنجاوز هذا النوع إلى ماهو أخفى وأدق وأكثر الناس لايفقهون إنه ظلم . إنه أشد أنواع الظلم وأنكاها وأضرها وأسرعها تخريباً وأقواها نكالا

عاش مع الحكومات المستبدة ولازمها ملازمة الظل للشبح والخبز للجسم وانتقل مع الأمم المتمدينة لم يفارقها كمرض عصبى فترى أكثر الامم الراقية يتخبطون به كمثل الذى يتخبطه الشيطان من المس وما هوذا هو أقصاء الأكفاء وتقريب الجهلاء برشوة أو بغير رشوة ذلك هو الظلم المبين .

الرجل الضعيف يفرق من لبيب تحت امرته فلذلك يجتهد فى أقصاء العلماء وتقريب الجهلاء فاذا تولى إدارة البلاد أو التعليم أو غيرهما من لا علم له بهما ولا اخلاق فقد حاق بالبلاد الهوان .

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وهناك ظلم لا يحسب الجاهلون له حساباً يحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ظلم

الضعيف لا يطيق عن نفسه دفاعاً ظلم تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . ظلم تهلع له القلوب وتنشق المرائر و يغضب الرب فى سمائه . ظلم يحمل النفوس أوزاراً والانسانية عاراً . ظلم وما أراك ما هو هو ظلم الحيوانات العجم التى التى سخرها لنا الرحمن الرحيم فمن حملها فوق ما تطيق أوأجاع أكبادها أنزل الله عليه صواعق غضبه ولقد شاهدت الفلاحين يسومونها سوء العذاب فعاهدونى على أن تتواصوا بالمرحمة وتتواصوا بالصبر على أمر الناس بالمعروف ونهيهم عن ذلك المنكر فانى أخاف على الأمة التي تظلم الحيوان الأعجم أن تبوء بغضب على غضب ولهم عذاب مهين و يقرب منه ترك هرتك المسكينة بلا إطعام لقد رأيت فى هذه الأيام الهرة التى اعتادت مصاحبتى فى الأكل تدخل حجرتى فى الوقت المعلوم تنبهنى على الأمرين نظام وقت الطعام ورحمة هذا الحيوان المسكين .

قد بان لك أن الظلم يكون فى إيذاء الناس والأموال ونهبها والأكفاء وتركها والبهائم وضربها أو إهمالها ومن الأول ظلم الآباء الأبناء والمعلمين تلاميذهم بالقسوة وكل ذلك يقعد بالأفراد والأمم عن المعالى و يغريهم جميعاً بالكسل .

وهناك قسم رابع أخفى الأقسام وأعمها ضرراً وأبعدها غوراً وأعظمها خطراً وقد يكون سبباً لبعض ما قبله من الأقسام وما هو هذا هو ظلم الأنفس بالجهل والكسل واهمالها بلا عمل فمن أتاه الله قوة جسمية أو عقلية فعطلهما فقد استحق الخزى فى الحياة الدنيا لأنه ظلم نفسه باهمال التربية والتعليم

من الظلم ظلم الأنفس و إذا كان نهب الأموال وحرمان الأكفاء ظلماً فمن السهل البين اعتبار المهمل بلا تربية وتعليم مظلوما .

إنه يستحق التعليم لما استعد له كما استحق الأكفاء للأعمال ما خلقوا له ان أعظم الظلم فى الأمم الضعيفة جهلها و إهمالها .

حرام على القادرين الأذكياء المتعلمين أن يخذلوا أممهم و بقول أحق وأصرح حرام عليكم أن تناموا عن إيقاظ الأمة لتعميم التعليم والا كان الساكتون ظالمين

وحرام على امرىء أن يضيع وقتاً بلا فائدة. لا تضيع وقتاً بلا فكر أو عمل إياكم أن أن تظلموا أنفسكم باهمالها و إياكم أن تظلموا الأمة بترك إيقاظها لتعليم أبنائها العلوم والصناعات . وحرمان المعنويات أكثر من حرمان الماديات إنك إذا منعتها حقها عليك وهو إرشادها فقد ظلمتها . للأمة على عقلائها حقوق كما أن للولد على أبويه حقوق التربية وللرعايا على الرعاة حقوق الأمن والحفظ ولا أبالغ إذا قلت من قدر أن ينفع سائر العالمين فقد ظلم الأمم وظلم نفسه إذا قصر فيما خلقه الله له .

الغش

الغش يكون في القول ولقد تقدم لكم الكلام فيه ويكون في العمل وهو الذي نتوخى الكلام فيه .

وهو إما في النفس و إما في الأسرة و إما في الأمة

النفس الخادعة الغاشة تبدأ بنفسها . لايخدع المرء غيره إلا بعد أن يخدع نفسه انه يضل نفسه عن الصراط المستقيم ويزيغها أولا ويقول ان أنال هذا الخير إلابالخداع ويستحلي مرارة الذنب ويستهين بالاثم ويستحسن القبيح ثم يقدر على فعلته ويتجاسر على خدعته ثم تكون فيما بعد ذلك له سجية لازمة وطريقة دائمة وتدخل الحيلة عليه من طريق الشهوات كأن يخل بميزان أعماله ويتجاوز الجادة في طعامه وشرابه ويغير مواقيت صلواته ومواعيد غذائه ويقول برة حاضرة خير من درة آجلة والمحقق من اللذة العاجلة خير من المظنون من اللذة الآجلة ويقعد عن الأعمال العظيمة خيفة خيبة الأمل وذلك بالغش الذي اعتاد أن يدخله على عقله ويقبله بجهله .

وقس على ذلك الغش في الصناعة وفي التجارة وفي غيرها فافهم هذا وتذكر ما سيأتي في الكذب وغيره وفكر فيما وصلت له حال بلادنا من الغش العام في المطعومات من سمن وزيت وخبز ودقيق وغيرها وكذلك الموازين والمكاييل. الحق

الحق. العدل العدل. ماللناس عن العدل معرضين مالهم عن الصراط السوى ناكبين كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته مسئول عما أؤتمن عليه مؤاخذ على التقصير فيه. فعلى رجال الحكومات أن يقوموا بالقطار ويضربوا على أيدى الغشاشين وليراقبوا الوزن والمكيال وليحاسب الناس أنفسهم قبل أن يحاسبوا . الغش يخيل للانسان النقص فى صورة الكمال والجهل فى هيئة العلم والضلال فى صورة الهدى .

يقول له الجهل ارحم هذا المسكين لاتشهد بالحق عليه لئلا يؤذيه الحاكم يقول استر على هذا البائع الخائن أو السارق الضال يقول ارفع قريبك أو صديقك إلى مرتبة ليس كفؤا لها ولا تبال بمن عداه والفضيلة تناديه والحقيقة تطالبه وتقول الحق أحق أن يتبع .

لاحياة للأمة ولا شرف للأسرة ولا فضيلة للمرء إلا بالأمانة وما من أسرة أو أمة غشت فى أعمالها إلا حقت عليها كلمة العذاب الهون بضياع مجدها وذهاب عزها كيف لا وقد وضعوا الأشياء فى غير مواضعها كيف لا وقد قلبوا النظام العام قلبوا الحقائق شوهوا تركيب جسم الأمة وضعوا عاليه سافله يشير لذلك معنى حديث البخارى (إن من إشراط الساعة أن ترفع الأمانة و يقل العلم و يكثر الجهل) صدق النبى صدق النبى صدق النبى ﷺ ولقد سمى صلى الله عليه وسلم الخائن منافقاً وأنزله عن رتبة المؤمن واسقطه إلى رتبة سجين وقال الله لهم تحملوا العار فى الدنيا بالذلة وفى الآخرة ادخلوا النار مع الداخلين وإن شئتم فاقرأوا قوله تعالى (وإذْ أخذَ اللهُ ميثاقَ بنى إسرائيلَ) وكيف عدد اثنى عشر عهداً فلما عتوا عما نهوا عنه جعلهم فى أسفل سافلين وأسقطهم إلى دركات الهون بما كانوا يكسبون

الغيبة والنميمة

قد بان لك مما تقدم كيف يهدم الظلم بنيان الأمة وكيف يتبعه الغش وهما رداءان اسودان تلبسهما الانسانية أحدهما ظاهر والآخر باطن متطابقان متحدان نتيجة وتارة يلتقيان فيكون الشىء ظلماً وغشاً ويشبه الغش ويقرب منه الغيبة

والنميمة . الغيبة ذكرك أخاك بما يكره هذه الآفة ليل عم ظلامه وأفل بدره وكور نجمه أنه ليل دامس غشى على القلوب غشى على العقول لبل ذو ظلمات ثلاث بعضها فوق بعض اذا أخرج فيها امرؤ يده لم يكد يراها وقد أصبح العالم والجاهل والذكى والبليد جميعاً يتفكهون بأكل لحوم إخوانهم ويفرحون ويرتعون فى مواقع التفريق بين الأحبة منهم

ما للناس ينسون قوله تعالى (ولا يَغْتَبْ بعضُكم بعضا أيُحِبُّ أحدُكم أن يأكلَ لَحْمَ أخيهِ مَيْتاً) وكيف سماه أخا ومثل غيبته بأكل لحمه وقيده بكونه ميتا وما أقبح لحم الأموات وما أفظع أكل الشره لحم أخيه لاسيما إذا كان جيفة منتنة

إلا أن هذه حال النمامين وصفات المغتابين والنمامون مثلهم كمثل الظرابين يفرقون الناس بأذاهم وما أسرع خجلهم وما أقرب فضيحتهم

لقد نم بينى و بين صديق لى إنسان فلما أن تلاقت الوجوه وحصحص الحق وزهق الباطل شاهت وجوه الخائنين وأخزينا وأقصينا وقلنا ألا بعداً للقوم النمامين الفاسقين واتحدت أنا وصاحبي على نبذه فهذا أقل نتيجه

إياك أن تصاحب نماماً إياك أن تقرب كذاباً إياك أن يضم مجلسك مغتاباً فمن نقل إليك نقل عنك ومن كذب لك كذب عليك واعلم أن كثيراً من الناس خادعون ذوُوْ وجهين ولسانين ولن تجد امرأ سر يرته كعلانيته إلا قليلا

فاحترس من الناس لئلا تقع فى شرك النمامين المغتابين فيفسدوا عليك القلوب الخالصة لك ويقصون عنك النفوس الوامقة وكن ممن قال الله تعالى فيهم (وإذا سمعُوا اللغْوَ أعرَضُوا عنه وقالوا لَنَا أعمالنا ولكمْ أعمالكم سلامٌ عليكم لانَبتغِى الجاهلِين)

الصدق والكذب

إذا كنت بجانب النيل وسئلت أين قصر النيل فقلت مشيراً له هاهوذا فأنت صادق و إذا أجاب المسئول بغير ذلك فهو كاذب ، إذا اشتريت كتابا أو بعت سلعة أو شاهدت أمراً أو سمعت قولا فليكن قولك مطابقا للحقيقة مقارنا للصحة لتكون صادقا و إلا كان الكذب

فالصدق الاخبار عن الشيء على ما هو عليه ، والكذب الاخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه

الصدق شيمة الأنبياء وحلية الحكماء وخصلة العلماء وزينة الأدباء والكذب خصلة اللؤماء ، وصفة الجهلاء ، وحلية الغافلين . أنا لا أقول لكم (انار الله سبلكم) دعوا الكذب فأنتم أجل نفوسا وأطهر قلوبا وأرقى أدبا أن تتدلوا إلى هذه النقيصة أو توصموا بهذه الرذيلة

و إنما أريد أن تتبينوا مضار سبله ومفاوز طرقه وشرور منتهجية الكاذبين الكاذب يضرب قلبه بمدية من لسانه و يساقط على فؤاده لعنات من قلبه لا يستقر على حال من القلق يبنى قصوره على شفا جرف هار ويضع قدمه على متن الهواء فينزل إلى أسفل سافلين

الكاذب أبدا فى ريب من أمره وهو فى شك من ثمرات عمله والنتائج من نفثات مكره فليس بمطمئن القلب وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم للحسن بن على رضى الله عنهما دع ما يريبك إلى مالا يريبك فان الكذب ريبة والصدق طمأنينة إلا أن نفوس الكاذبين فى عذاب من الشك مريب

الكاذب ينفض من حوله الأصحاب و يتفرق عن الاجتماع على محبته الأحباب إلا أنهم لا يصدقون له قولا ولا يعدونه عدلا أميناً . من فقد ثقة الاخوان عاش طريداً وحيداً وهو فى أهله

فهما طال معهم أمده أو أحاط به أهله وولده فانهم به لا يثقون وربما كانت العاقبة أن ينهض جمعهم وتذهب ريحهم ويزول مجدهم ذلك أن الناس إنما يعيشون مجتمعين ويتمتعون بالعيش متضامنين واللسان ترجمان والصدق رسول الأمان فاذا تناولوه بالكذب ضاع الحق فيما بينهم وغشيت شمس الحقيقة بسحاب باطلهم وأسدل ليل الكذب على أنوار الحق المبين فأخذ كل من أخيه الحذر وطفقت أباطيل الايمان ومرديات الزور تلعب دورها وتمثل صورها ثم يظهر الأمر للاعبين وتفتضح الأسرار عند أولئك الأشرار فيعيشون على غير هدى

أو يتفرقون غير مأسوف عليهم . وهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم (اليمين الغموس تترك البيوت بلاقع)

إذا رأيت الكذب على أسرة ضرب أطنابه وأنزل بساحتها ركابه فاعلم أنها فى الأدابر

إذا أحاط الجبن بالقلوب وخاف الناس من الافصاح عن الحق وضربت عليهم الذلة والمسكنة انطلقوا إلى رذيلة الكذب مهرولين ومن أفرغ الاناء من الماء امتلأ من الهواء

الأمة الذليلة كذبة لما اعتادت الأكاذيب خيفة الرقباء والأمة العزيزة أقرب إلى الصدق فى الأقوال وهذا سر قول بعضهم الصادق مصان جليل والكاذب مهان ذليل.

ألا وإن الكذب جماع كل شر ومفتاح كل إثم والأمة الكاذبة يقل فيها الاصدقاء ويكثر فيها الأعداء ويتركون الأعمال فتذهب دولهم ويملكهم قوم آخرون وهذا هو الخزى فى الدنيا وهو بعض اللعنة فى قوله تعالى (فنجعل لعنة الله على الكاذبين)

تبين لك أن الكاذبين لا نفوس لهم مطمئنة ولا اسراتهم بوثيقة العرى ولا وافية العهد ولا أممهم ذات حول وطول وعز وشرف مبين وما لنا وللاقضايا العلمية والمقدمات المنطقية والأدلة الخطابية . سأل صانع أحذية مصريا فقال له ما الذى

منعك أن تؤجر فى حانوتك العمال المصريين فقال إن كثيراً منهم كاذبون يأخذون الدراهم و يعدون بالعمل ثم لا يرجعون فاضطررت لتأجير سواهم من الصالحين

تواترت هذه الشكوى وعمت البلوى

ولقد كنت أظن أن الأكاذيب خاصة بالجهلاء حتى ألفيتها فى طبقة المتعلمين ولعمرك ما بلوت أمراً فكذب ولو كان ذا علم إلا سقط من عينى فلا ترجع له عندى درجته ولا تدخل فى قلبى هيبته

قل للكاذب ماذا حملك على الكذب أو ليس لك مروءة إن الرجل إذا كذب ذهبت بهجته وسقطت رتبته وغاض ماء وجهه قال بعض الشعراء

وما شىء إذا فكرت فيه　　بأذهبَ للمروءة والجمال

من الكذب الذى لاخيرَ فيه　　وأبعدَ بالبهاء من الرجال

الكاذب لا يوثقَ بأيمانه مشكوك فى أخباره مطعون فى دينه كما فى حديث « علامة المنافق ثلاثٌ اذا حَدَّثَ كَذَب الخ » فخلف الوعد والكاذب أخوان وهما فى الشر والذم سيان فان الصدق والكذب فيما مضى من الاخبار والخلف والوفاء فيما هو مستقبل فمُخْلفُ الوعد والكاذب منافقان

ولما كان الشك قد تطرق الى أيمانهما ورسول الكفر طرق بابيهما أدخلهما الله فى حوزة الكافرين (إنما يفترى الكَذِبَ الذين لايؤمنون بآيات الله »

قل للكاذب ماذا به تبتغى

فان استجلبت به شهوة حاضرة أو منفعة ظاهرة فلقد حسبت السراب ماء واتخذت نسج العنكبوت بيتاً فلعمرك ما أنتج الشر إلا الشر وهل دار بخلدك أو جاش بصدرك أن تتخذ من الوهم قصوراً ومن النار جنة وحريرا فلا والله ليتفضحن أمرك ويزول لبسك و يمر غدك وإن حلا أمسك للعالمين وسيكشف

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأن يضرنى الصدق وقلما يفعل أحب إلى من أن ينفعنى الكذب وقلما يفعل

وقال بعض الحكماء الصدق منجيك وإن خفته والكذب مرديك وإن أمنته . وإن كان ذلك لطبع غلب عليك فتلك وصمة عار فأقلع بالتوبة عنها وار بأ بنفسك أن ترعى فى مراتع الهلكة أو تدنو منها . وإن كنت تفعل ذلك ليحلو حديثك للسامعين وتسر بذلك الجالسين فلقد ركبت أسوأ المطايا لأشرف المنازل ونعم السير على بئس العير فمثله كمثل الذى حج بالمال الحرام أو بنى المسجد بمال الأيتام . أو كمثل اللصوص ينفقون أموالهم فى سبيل الله . وهذا لما عجز عن استماع الأذان له وإقبال الوجوه عليه بالعلم والحكمة سارع الى الأكاذيب فدبرها وإلى الأوهام فكبرها وإلى المستحيلات فصورها ثم رمى بها عقول السامعين

وإن كنت تشفى بالأكاذيب غيظك من عدوك فتفترى عليه الأباطيل وتذيع عليه المقال والقيل فقد بوءت بأخس الصفقتين ولربما كانت لك معرتها وله فضيلتها فقد تظهر مزايا العظيم إذا ذم ويعظم شأن العالم إذا كذب عليه الجاهلون كما قيل

وإذا أراد اللهُ نشرَ فضيلة ... طُوِيَتْ أتاحَ لها لسانَ حَسُودِ
لولا اشتعالُ النار فيما جاورت ... ما كان يُعرَفُ طِيبُ عَرْفِ العود

(١) لو صور الكذب لكان لونه السواد ولو صور الصدق لكان لونه البياض

(٢) الكذب يخفى الحقائق ويدسيها والصدق يظهرها ويجليها

(٣) فانه كقطع الليل المظلم فى اخفاء الحقائق وطمس المعالم حتى قال تعالى (ويومَ القيامةِ ترَى الذين كذَبوا على اللهِ وجوهُهم مُسودَّة) فان الظواهر مرايا البواطن فاذا حنظلت نخلاتهم وأظلمت قلوبهم ظهر الأثر على الجوارح فصورت ما أخفته القلوب وكتبت على الجباه ما أكنته الجوانح

ألا ترى أزاح الله عنك الظلمة والهمك الحكمة وجعل قولك الصدق ووفقك للخير

(١) كيف يشك فى القول اذا شككته ويستريب فيما أورده إذا أربته

(٢) وكيف ينكص على عقبيه ويحصر فى مقاله إذا رددته عليه ويظهر على وجهه سمة الخزى ووصمة القلق وأمارة الاضطراب

(٣) ولو أنك حدثته بحديثه المكذوب وقلبت الوضع وذكرت وحذفت ونقصت ما أنكر ذلك عليك ولا امترى فيما أوردت من المقال

هذه علامات الكذاب بها يعرف عند المتوسمين من ذوى البصائر وأصدق الشهداء عليه وأعظم الرقباء نظرات العينين وفلتات اللسان وأحوال الوجه والملامح

ألا وإن الوجه والعينين مرايا القلوب وعنوان ما فيها من العيوب

تريك أعينُهم ما فى صدورهم أن العيون يؤدى سرَّها النظرُ

مقياس آداب المرء عندى فى الحياة وعده وخبره فان صدق ووفى كان أقرب إلى الأمانة وأن أخاف الوعد تكراراً وكذب ولو مرة لم أكد أصدقه واستريب فى جميع أقواله

اذا عُرِفَ الكَذَّابُ بالكذب لم يَكَدْ يُصَدَّقُ فى شىء وإن كانَ صادقاً
ومن آفةِ الكذَّابِ نسيانُ كِذبِه وتلقاه ذا حفظ اذا كان صادقاً

أسئلة

(١) ما أسباب الكذب

(٢) ما علامات الكذاب

(٣) ما نتيجة الكذب فى الأسرة والأصحاب والأمة

(٤) الآيات الواردة فى الكذب

(٥) الأحاديث

(٦) ما دواء هذا الداء

الوفاء بالوعد

الوعد دين واجب أداؤه فلا تخلف وعدك ولا تعد أحداً بما لاتقدر على وفائه

لقد أصبح إخلاف الوعد فى بلادنا من أسهل الأمور وقلة الوفاء عند الصغير والكبير

من أخلف الوعد فقد عصى الله وخالف سنته فى نظامه إن الله لا يخلف الميعاد

إذا وضعت حبة برسيم أو ذرة أو قمح أو قطن فى الأرض وأنزلت عليها الماء وانتظرت أياماً فماذا ترى ، ترى برسيما أخضر ناضراً من الأولى وعيداناً خضراً مورقة ناضرة فيها سنابل مخروطية مرصعة بحبّ يماثل ما نبت من الثانية وسوقا دقيقة ذات سنابل مكللة بالقمح من الثالثة وأشجارا مورقة مزهرة تثمر تمراً يغزل وينسج ملابس للانسان من الرابعة فقد صدق ما أحاط بنا من النبات وعده من تغذية الدواب والانسان ومن اللباس . وإذا وضعت يدك فى النار انتظرت منها الحرارة أو على الثلج تربصت البرودة وإذا انتظرت كلا من طلوع الشمس وغروبها من أول يوم من فصل الربيع أو الخريف الساعة ١٢ عربية تماماً أنجزت الشمس وعدك

وإذا تربصت أول الشهر أن يكون هلال على ما يقتضيه جدول الفلكيين تبسم لك ضاحكا وظهر لك وجهه الجميل فى السماء قائلا أنا لا أخلف الميعاد وعدالله لا يخلف الله وعده إن الله لا يخلف الميعاد

هذه فطرة الله عز وجل فطر الناس عليها إلا وإن العالم عمل الله وقد ظهرت فيه آثاره وتبينت فيه أخلاقه . وفى الحديث « تخلقوا بأخلاق الله »

لذلك مدح الله أقواما صدقوا وعدهم ووفوا بما عاهدوا بل قرن الوفاء بالعهد بالنبوة وقدمه فى الذكر تنويها به وتنبيها على عظم قدره فقال (وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ اسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولا نَبِيا) فتعجبوا كيف صدق الله وعده فى المخلوقات المشاهدة ثم مدح رسولا صادق الوعد . وازنوا هذا بحالنا اليوم اخلاف الوعد لؤم والوفاء فضيلة . إلا لاسعادة فى الدنيا إلا بالشرف ولاشرف الا بالفضيلة والانسان بلا شرف ينزل عن درجة الحيوان

والوفاء بالعهد من أفضل الأخلاق خلة وأعلاها منقبة وأشرفها مزية إلا وأن الوفاء بالعهد صفة أكمل الرجال فبها يمتاز الكامل من الناقص والشريف من الوضيع ولا قيمة لمن يخاف الميعاد ولا شرف له عند الناس كبر مقتا عند الله وعند الناس إلا بنى بالعهود كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَالاَ تَفْعَلُونَ

ولأقص عليكم مثل أناس وفوا بعهدهم فضرب المثل بوفائهم فخلد التاريخ لهم أثاراً ورفع لهم فى الآخرين مناراً وأسدل على ما فعلوه من السيئات ستاراً فمنهم من مات شهيد وفائه وقتيل فضيلته فعلا فلا شرف إلا بالفضيلة وهى هنا الوفاء . ومن هو ذا أنه رجل رومى يسمى رجليوس أسر فى مدينة قرطاجة والحرب قائمة بين القرطاجيين والرومانيين ، فعاهده آسروه أن ينطلق لقومه ويحسم النزاع بينهما فتضع الحرب أوزارها و إلا رجع إلى أسره فلما أن خاب مسعاه فى الصلح عند قومه كر راجعا إلى قرطاجة ورضى بالعذاب المبين والقتل خيفة أن يسجل على نفسه وأهله وقومه العار فى العالمين ففضل الموت على الحياة وقدم نفسه فدية الفضيلة واستبدل الموت بالحياة خوفاً من عار الغدر

وقد تعلمون خبر السموأل وأنه سلم ابنه للقتل خوفا من العار والفضيحة بسبب الغدر وذلك أن امرأ القيس بن حجر لما سار إلى الشام يريد قيصر نزل على السموأل ابن عادياء بحصنه الابلق بعد أن أوقع ببنى كندة وخذلته حمير وكرهه أصحابه لسوء فعله ومعه الادرع الخمسة التى كانت الملوك من بنى آكل المرار يتوارثونها ملك عن ملك وسلاح ومال كثير فاجاره وأكرمه ثم ترك ذلك عند السموأل وقصد قيصر ثم أن المنذر وجه الحرث بن ظالم فى خيل وأمره أن يأخذ مال امرىء القيس من السموأل ، فلما نزل به تحصن وكان له ابن قد ايفع وخرج إلى قنصه فلما رجع أخذه الحرث بن ظالم ثم قال للسموأل أتعرف هذا قال نعم هذا ابنى قال له أفتسلم ما قبلته أم أقتله قال شأنك به فلست أخفر ذمتى ولا أسلم قال

فضرب الحرث الغلام فقطعه قطعتين وانصرف عنه فقال السموأل

وفيتُ بأدرُع الـكندى انى اذا ما ذُمَّ أقوام وَفَيْتُ
وأوصى عاديا يوما بألاَّ تُهَدّم يا سموألُ مَا بنيتُ
بنى لى عاديا حصنا حَصِينا وماء كلما شئتُ استقيتُ

أنظر الأغانى الجزء الثانى صفحة ٩٨ فانظر كيف أبقى ذكره شرفاً رفيعاً نحو ألف وخمسمائة عام إلاوأن حياتنا ساعة وأعمارنا قصيرة.ألا أذكر لكم قصص رجلين أحدهما غادر والثانى فاجر فأما الغادر فانه عبد الملك بن مروان فإنّهُ أمّنَ عمرو ابن سعيد ثم قتله فقال لرجل كان يستشيره و يصدر عن رأيه إذا ضاق به الأمر مارأيك فى الذى كان فقال أمر قد فات دركه قال لتقولن قال كيف يحيا من وقف نفسه موقفاً لا يوثق له بعهد ولا بعقد. قال عبدالملك كلام لو سبق سماعه فعلى لامسكت

وأما الآخر فهو عبد الحميد الكاتب فقد قال له مروان بن محمد حين أيقن بزوال ملكه قد احتجت إلى أن تصير إلى عدوى وتظهر الغدر لى فان إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك يدعوهم إلى حسن الظن بك فان لم تستطع أن تنفعنى فى حياتى نفعت حرمى بعد مماتى فقال له إن الذى أمرت به أنفع الأشياء لك . وما عندى غير الصبر معك حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك .

وهل أنبئكم بخبر الحرث بن عباد أرسل بجيرا وهو ابن عمر بن عباد أخى الحرث إلى مهلهل بعد قتل همام وجساس وكتب معه لمهلهل يقول قد أسرفت فى القتل وأدركت ثارك وقد أرسلت ابني إليك فاقتله بأخيك واصلح بين الحيين إن شئت فقتله وقال بِشسع نعل كليب .

فاشعل الحرث نار الحرب فوقع المهلهل أسيراً فى يده وهو لايعرفه فقال الحرث دلنى على عدى وأنا أخلى عنك فقال المهلهل عليك عهد الله بذلك ان دللتك عليه فقال نعم قال فأنا عدي فجز ناصيته وتركه وقال فى ذلك .

لهفَ نفسى على عَدِيٍّ ولم أعْ رِفْ عَدِيا إذ أمكنتنى اليدان

وفاء سيدنا عمر

ولا ذكر لكم خبر سيدنا عمر بن الخطاب إذ وفى بعهده للهرمزان ذلك أنه لما أمر بقتله طلب الهرمزان ماء ليشرب فأتى له بقدح فاستأمنه حتى يشرب فأمنه سيدنا عمر فأراق الماء فخلى عنه للعهد الذى أعطاه .

وممن ضرب به المثل فى الوفاء

حنظلة الطائى ومن هو. هو رجل مجهول فى القفار لايؤبه له أكرم النعمان فى يوم سماء فلما ودعه عرفه بنفسه ووعده بالاحسان فجاء الحيرة فى يوم بؤس النعمان وهو يوم يقتل فيه كل من ورد عليه فأمر بقتله أو ليكفلنه أحد فتكفل به رجل من كلب فأخذ الطائى خمسمائة ناقة ورجع إلى أهله وجاء عند حلول الأجل بعد عام من يومه فلما رأى النعمان ذلك قال والله لا أدرى أيهما أوفى وأكرم أهذا الذى نجا من القتل فعاد أم الذى ضمن بنفسه والله لا أكون الام الثلاثة فأنشأ الطائى يقول :

ما كنت أخلفُ ظنَّه بعد الذى ... أسدَى إلىَّ من الفعال العالى
ولقد دعتنى للخلافِ ضلالتى ... فأبيتُ غيرَ تمجُّدى وفعالى

لما حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال إنه خطب إلى إبنتى رجل من قريش وقد كان منى إليه شبه الوعد فوالله لاألقى الله بثلث النفاق أشهدكم أنى قد زوجته إبنتى

فانظروا أيها الطلاب فى هذا القصص وتدبروا المواعظ واذكروا ما يصير إليه حال خائنى العهود ومخلفى الوعود . كم مقت يجرون على أنفسهم وكم مصلحة ومنفعة تذهب عليهم لاخلاف الوعود وكفى بخلف الوعد جرماً إلا يثق الناس به كما ترون فى قصة عبد الملك

إجعلوا وعودكم مع الناس كحضور المدرسة فى أوقاتها وسير القطار البخارى فكما لاتتأخرون عن ميعاد المدرسة إلا لعذر ثم تقدمونه هكذا فلتفعلوا ذلك مع من تعدون ولتعلموهم قبل حلول ميعاد الأجل المضروب وتذكروا دائماً قول الشاعر .

إذا قلتَ فى شىء نعم فأتمه ... فان نعَمْ دينٌ على الحر واجبُ

والا فقل لا تسترح وترح بها   لئلا يقول الناس إنك كاذب

واعتبروا أيها الطلاب بذلك الأعرابى القح حنظله إذ خلد إسمه فى التاريخ بالوفاء بالعهد. لولا الوفاء ماطار إسمه فى الآفاق ولاعرفه الشرقى والغربى إلا أنما الجمال فى الأخلاق . أنظروا كيف كان الوفاء درة فى تاج عمر ورفعة لذلك الوضيع حنظلة ووصمة للملك العظيم عبد الملك وفخراً لعبد الحميد المقتول وذكراً خالداً للسموءل .

الوفاء أشرف الخلال . الوفاء بالعهد شهامة عربية أو خلة مضرية وقد أرشدت إليها الشريعة الغراء والقرآن حض عليها والسنة أيدتها بل علامة الايمان وضدها من أخلاق النفاق قال أبو هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم (ثلاث من كن فيه فهو منافق و إن صام وصلى وزعم أنه مسلم إذا أخبر كذب و إذا وعد أخلف و إذا اؤتمن خان)

وقال عبد الله بن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أربع من كن فيه كان منافقاً ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها . إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف و إذا عاهد غدر و إذا خاصم فجر) قال تعالى وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولا) وقال (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ)

أسئلة

على الوفاء والغدر

(١) أذكر الآيات الواردة فى وجوب الوفاء بالوعد

(٢) أذكر الأحاديث الواردة فى الوفاء بالوعد

(٣) من غدر وأخلف الوعد فما وصفه فى الدين

(٤) أذكر من جعل نفسه فدية لشرف الوعد من العظماء المسلمين وغيرهم

(٥) أتعرف من الذى سلم إبنه للقتل ولم يخلف الوعد

(٦) ومن كان صعلوكا فوفى بعهده فحاز الشرف وذاع اسمه فى الأقطار

(٧) أى ملك غدر فندم بعد الغدر
(٨) أذكر من ظفر بعدوه فوقع فى قبضته فاحتال عليه بوعد فوفى به خيفة أن يوصف بالغدر
(٩) ماذا يجب عليك قبل الوعد وماذا تفعل إذا اضطررت لعدم الوفاء بعده.

محبة الوالدين والأقارب والأصدقاء والجيران
والأهل والوطن

قد سبق لنا القول أن الناس مدنيون بالطبع وبعضهم عضد لبعض ولن يتم ذلك إلا بأمرين بتخلية من ظلم وغش وكذب وما أشبهه من آفات اللسان والأفعال وتحلية بمحبة وأخاء ومودة ونقول الآن .

إن الأمم فى اجتماعها والناس فى حياتها أشبه بالأجسام الانسانيَّة فى تنظيمها والأجسام فى حاجة إلى غذاء يبقيها ودواء ينجيها عند الخوف ويقويها عند الضعف ومرض الأمم والمجتمعات البشرية والاسرات المنزلية والصداقة الأخوية أنواع الظلم والفسق والأكاذيب وما أشبهها مما ذكرناه آنفاً وغذاؤها المحبات والمودات والاخلاص فى الأقوال والأعمال .

المحبة سر الله المكنون المخزون الذى أقام به السموات والأرض . المحبة نور أشرق على البصائر فأنارها وأضاء على النفوس فأسعدها لئن أضاءت الشمس والقمر والكواكب أقطار السموات وأكناف الأرض فهكذا كان الحب شمس النفس الانسانية وقمر العقل البشرى وكواكب القوى الانسانية وكما أن الكهرباء إن أنت أثرتها بالصنعة ثارت فأدارت الدولاب فسقت الحرث وروت الأرض وحلجت القطن ونسجت الثوب وصَنَعَتِ اللبِنَاتِ ثم جعلتها آجراً فنبنى بها البيت ونرفع القصر المشيد هكذا كانت المحبة فى نفوسنا والود فى قلوبنا إن نحن تركناها عدمنا أثرها وجهلنا خيرها وحرمنا وإن نحن أثرناها بالمخالطة التوادية

والألفة وقدح زناد الاخوة والصلات بالهدايا والتحف والابتسام والأدب وحسن المقال وَطيب الفعال كانت لنا نوراً مبيناً .

لولا المحبة ما تصافى الزوجان ولا أنجبا الغلمان . لولا المحبة ما فهم العلم طالبوه ولا أدرك الدرس سامعوه. الحياة ظلمات كقطع الليل المظلم وليس يضيئها إلا نجوم المحبات وبدور المودات ٠ لولا قلة المحبة فى هذا الأنسان ما أعوزه القضاة ولاطمع فيه الجناة ، ليس يلجأ هذا الأنسان للمحاكم إلا بعد ضعف المحبة . كمنت المحبة فى القلوب . توارث فى النفوس كما كمنت الكهرباء فى الأجسام وتوارث النار فى الأحجار والأشجار وغاب البخار فى أقطار الهواء فمن استخرجها فاز بها وسعد ومن ضل لجهلها شقى بجهله وضلاله المبين ، لعلك تقول ما السبيل لايراء نار المحبة ، وما العمل لإثارة كهرباء المودة وما الطريق والسبيل ، ومن الذى يجب أن أتجه له بالمحبة وأتقدم إليه بالمودة

أحب أبويك ، أحب ابنيك ، أحب اخوانك وجيرانك ، أحب وطنك ، أحب الناس إن كنت من الكاملين ، للحب أسباب ولا نتيجة بلا مقدمات ، ولا ثمرات بلا شجرات . يطلب العاقل الحب كما يطلب المال ، إن شرف المحبة ومقام الصداقة ودرجة المودة أعلى وأشرف من القنية وسائر الأحوال الجثمانية

الناس يطلبون المال بالجد والتشمير ، ولكنهم لا يحبون إلا مصادفة فإذا رأيت الناس أدبروا عنه فكن مقبلا واعلم أن بناءه على دعامتين التفكر والعمل ، فأما التفكر فإنه يجلى لك شمائل من تحب ويظهر لك ما تناسيته أو نسيته من صنوف الفضائل وضروب الأنعام . تذكر فضل الوالدين عليك وتمثل أمام عينيك صنعهما وما لهما عليك من صنوف النعم والتكريم ، هذا بماله وقوته ورحمته ، وتلك بحملها ورضاعها ورعايتها ورأفتها ، تصور ذلك وانظمه فى مخيلتك واعرضه على عقلك وانظر هل جزاء الإحسان إلا الأحسان إن ذلك يدعوك للعمل فتسمع وصية الله عليهما فى قوله (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) وإذا ما وصلت إلى

قوله (وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً) . فقارن وشبه وقو الشبه بين الرحمتين بالأعمال واياك والإهمال « إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين »

وكما أن من الناس من يغفل عن محبة الأبوين ترى فئة يغضون الطرف عن الولد ويأوون كشحاً إلا فليذكر أولئك بما غرس فى فطرهم وليداووا بدواء التذكر والممارسة لأبنائهم وليخالطوهم وليكسوا الرحمة برداء المحبة ومن مكملاتها تربياتهم جسما وعقلا والائتناس بهم ومجالستهم ومعاشرتهم وأن يخصصوا ساعة يكسبوهم من محاسن صفاتهم وشمائلهم التى اكتسبوها على شريطة أن يحجبوا المساوى وينأوا بالمخازى فالطبع سراق للحسنات والسيئات ولتعم بالحب والاحسان سائر أقاربك ولتجاوز عن هفواتهم ولتكن معهم كيوسف الصديق مع اخوته وان ترى أحدا إلا وقد أساء ذوو القربى فالفاضل المهذب من تجاوز وأغضى وقابل الاساءة بالإحسان كما فعل سيدنا يوسف وكان جزاؤه فى الدنيا أن أصبحوا له مطيعين وخروا له ساجدين وفى الآخرة أنه ألحق بالصالحين

كرر سورته وتعجب من العفة فى الشباب والفضل والخلق الحسن ودفع السيئة بالحسنة واكرام الأهل والعشيرة الذين كانوا له كالحاسدين

الاصدقاء

الأنسان بلا أصدقاء فى الحياة يودهم ويودونه ويحبهم ويحبونه ويتبادلون المنافع كحجر ملقى فى الفلاة إياك ألا تطلب الصديق . الصديق خير من الذهب والفضة وسائر ماعلى الأرض وإذا اصطفيت امرءا لأخلاقه الكريمة وآدابه الفاضلة فاقدح نار المحبة وأثر كهرباء الود بالبشر عند اللقاء والهدايا والتحف عند الامكان . قال بعض الحكماء عجبت لمن يعلم أبناءه اكتناز الذهب والفضة ولا يعلمهم اكتساب الأصحاب . تلق أصحابك بالبشر وكذا سائر معارفك واقرأ ما كتبه ابن مسكويه فى ذلك والغزالى لتعلم أن من أصول الدين اتخاذ الأصدقاء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله يوم القيامة أين المتحابون لجلالى اليوم أظلهم

فى ظلى يوم لاظل إلا ظلى » وأوحى الله إلى المسيح عيسى عليه السلام لو أنك عبدتنى بعبادة أهل السموات والأرض وحبٌ فى الله لَيْسَ و بغضٌ فى الله لَيْسَ ما أغنى عنك ذلك من الله شيأ

من هم الدين نحبهم فى الله

كل من أحببته لمونة جسمية أو عقلية كالشريك والخادم والاستاذ والزوجة والولد بهم جميعاً تقرب لله كل من أعانك بقول أو فعل فأحببته لحبه قربى لله عز وجل وهو المسمى بالحب فى الله ألا ترى أنه يعينك على الفضيلة إما بنفسه كالمعلم أو بواسطة كالخادم ما أهنأ عيش المتحابين ما أسعد ذوى الأخلاق الجميلة الذين يحبون الناس ويحبونهم . حاجاتهم مقضية . سيرهم مرضية رضى الله عنهم ورضوا عنه واحذر مجادلة الأصدقاء أو غيبتهم أو سماع ذم فيهم وأنت ساكت . ادم السؤال عنهم . أكرم تابعيهم وأقاربهم وأصدقاءهم . من فعل ذلك سعد فى الدنيا ودانت له القلوب وكثر أصدقاؤه

والعاقل إذا تألفناه جلب أمثاله وأشباهه وقد ورد فى الخبر أن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور ووجوههم نور قالوا يا رسول الله من هم فقال المتحابون فى الله والمتجالسون فى الله والمتزاورون فى الله

حب الوطن

ليس حب الوطن غريباً عن موضوعنا أنه حب الأصدقاء و إخاء أهل وطنك أهل وطنك هم أعوانك وعشيرتك هم الذين ربوك ووازروك هم الذين واسوك فى السراء والضراء الوطن جسم وأنت منه عضو . أحب أمتك المصرية . جاهد ماحييت فى اعلاء شأنها . أن الجهاد فى ذلك يأمر به الشرع ويشير له الحديث المتقدم . أعن أهل وطنك أبذل لهم العقل والمال والروح عند الحاجة وافهم قول النبى صلى الله عليه وسلم إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور ، ثم

وأشار إلى الأصدقاء . ولا تظهر الصداقة إلا بالمعاونة أنت مِنَ الأمة واسمها . أنت جزء منها . إياك أن تقعد عن نصرتها لئلا يغضب ربك ويغضب نبيك . إياك أن تكون عالة على الأمة فياحسرة على أمتنا المصرية إذا غض الطرف عنها أبناؤها الأمة كلها لك صديقة ولئن ثبت بالبرهان الصادق أن سائر بنى آدم مشتركون متعاونون فى منفعتك فعليك أن تعينهم وتكافئهم فما أحراك أن تحب أمتك وأنت من عنصر مزاجها ونسج بردها . لا تظن أن حب الوطن أن تقول باللسان وتعتقد بالجنان وأنت عن العمل قاعد ، ولكن لتعلم أن محب الوطن يجاهد بلسانه و بقلمه و بعلمه وسائر جوارحه . وطنك مصر تحتاج لخدمتك مصر ترجو منك اسعادها . مصر جنة الدنيا وفردوس الحياة . مصر زينة الكمال فأحبها حباً جماً . هل أدلك على تجارة بها تنجيها وصناعة بها تسعدها

(١) اقرأ العلم فى المدرسة رغبة أن تتحلى به وتكون به عليا . أضمر لسائر اخوانك ومعلميك الحب وعاملهم بالصفا والمودة

(٢) فإذا فرغت من مدرستك ونلت شهادتك فانطلق إلى الخلوات والحقول وادرس نظامها وقيد فى دفترك علومها وضعها لديك فى كتاب فإذا آنست من نفسك جمال المخلوقات ورسمت على صحيفة عقلك سطوراً من هذه الكائنات فاعلم أنك أهل لقيادتها وسوقها إلى سعادتها . أن سماء مصر صافية جميلة وماؤها سلسبيل وما أجمل النيل وما أحسن أشجارها وأجمل أزهارها وأغزر أثمارها . بلاد جميلة بهية أحق بلاد الله بإخراج العلماء والمفكرين

(٣) فإذا أخذت بحظ من هذا الجمال فاعمل بهذه الوصايا (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلا اللهَ وبالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِى القربى وَاليتامى وَالمسَاكِينِ وقولوا لِلناسِ حُسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة)

فأكرم والديك بالقول والاحسان وأقاربك ليكون لك مرانة على اكرام اليتامى والمساكين فى بلادك وقابل الناس أجمعين بوجه باش وقل لهم قولا جميلا وأقم الصلاة حبا لله وأنفق مما أتاك الله و إياك أن تذر لحظة من زمانك بلا فكر أو

عمل. إياك أن يذهب شبابك وأنت غافل فانك إذا أضعت لحظة من زمن شبيبتك كانت حسرة عليك وعلى وطنك . وكلما فرغت من شأنك الخاص فانظر فى أمر أمتك وحام عنها جهد الاستطاعة وأيقظ العقول من نومها وأقم النوام من سباتهم العميق . لا تدع ضالا ولا جاهلا حتى ترشده إلى الصراط المستقيم. و إياك أن تظن أن خادم الوطن يحرم فى الحياة الدنيا من الذكر الجميل والخير العميم ولتعلم أن الجزاء يعم الدارين قال تعالى (وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فى الدُّنيَا وَإنَّهُ فِى الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) فهل أدلك على أحسن القصص لتنسج على منواله وتسير على صراطه تأمل فى قصة سيدنا يوسف النبى صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا وسلم

تربى في بيت الوزير المصرى فأكرم مثواه فارتدى بالعفة واتزر بالشجاعة وأبى الدنايا وقال لمن طلب الخنا إن هذا العزيز أحسن مثواى فلا أخونه فى عرضه وهل يفلح من خان المحسن إليه وما أجهل الظلوم وفضل السجن فى ظلامه على دنس العرض وشينه

فلما دخل السجن لم تصغر نفسه أمام الحوادث ولم يتقهقر أمام النوائب بل علم الخادمين وصغار العمال من المسجونين

حفظ النبى الصديق وهو فى مصر عفته وصان نفسه و بث الحكمة والعلم فى سجنه فماذا جرى أصبحت تلك السيدة له من المخلصين وشهد له أولئك الصعاليك فى قصر فرعون فقالت أنا راودته عن نفسه و إنه لمن الصادقين وقال ساقى الملك إنه عليم بتأويل المنام فأصبح أميناً بهاتين الشهادتين ودبر الأموال المصرية وصانها عن ضياعها وذهاب ثروتها ومجدها القديم فحفظ الغلال فى سنابلها أيام خصبها ووزعها بين الفلاحين أيام قحطها هذا هو المحب للأوطان هذا هو السيد العظيم هذا هو النبى الكريم هذا الذى عفا عن أخوته الذين فى الجب غادروه فخروا له سُجَّداً وَقَالَ ياأبت هذا تأويل رؤياى

أخدم مصر كما خدمها النبى الصديق ، أجتهد فى تعليم الفلاحين ، مصر جنة

وسكانها جاهلون. أنى أخاف أن تقصر فى حفظها لقد حق القول على من قصروا فى المنفعة العامة فقيل لهم (فما جزاء من يفعلُ ذلك منكم إلا خزىٌ فى الحياة الدنيا و يوم القيامة يردون الى أشد العذاب فالخزى فى الدنيا بالذل والتسخير وفى الآخرة بعذاب النار

و إن أردت المزيد فتذكر مافعله نبينا صلى الله عليه وسلم أتدري ماذا فعل نبينا وقد قال الله فى أول السورة نحن نقص عليك أحسن القصص وفى آخر غيرها وكلا نَقُصُّ عليكَ من أنباءِ الرسل ما نُثَبِّتُ به فؤادَكَ وجاءك فى هذه الحق

فانظر وتعجب فان نبينا صلى الله عليه وسلم اتعظ بهذه السورة وعمل بما علم فنال ما وعده الله ألم تر أنه كان يتيما فآواه الله ولم يكن متعلما فعلمه الله وكان عائلا فأغناه الله .

لئن ارتقى يوسف بصبره على الأذى فى سبيل الفضيلة وشدة عزمه وحزمه فى السجن وعلم الصعاليك فأعزوه وأيدوه فتسلم قيادة الأمة المصرية ورفع من شأنها ولم يطمع فيها جيرانها المعتدون ثم عفا عن أخوته فكانوا له محبين شاكرين

فلقد صبر النبي صلى الله عليه وسلم على أذى قريش وقولهم ساحر كذاب كشأن بطانة العزيز الذى سجنوا الصديق زوراً و بهتانا وكان يعلم الفقراء الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف كصهيب وسلمان الفارسى كما علم الصديق الخدم فى السجن وملكه الله زمام بلاده وفتح مكة وغيرها فقام بالعدل كما تولى يوسف ادارة بيت المال فى مصر وعفا عن قريش وأكرم أشدهم بأساً وأصعبهم مراساً وعداوة وهو أبو سفيان زوج هند وهى التى أكلت من كبد عمه

أكرمه النبي صلى الله عليه وسلم وعظمه فقال يوم أن فتح مكة من دخل دار أبى سفيان فهو آمن أوليس من العجيب أن يشرف النبي صلى الله عليه وسلم أبا سفيان كما قال يوسف الصديق لا تثريب عليكم اليوم أو ليس من المدهش أن يتوافق التاريخان ثم أليس من المحزن أن يتجافى المسلم عن الفضيلة جهلا فاقتد بأولى العزم ممن هم قادتنا

أن الأخلاق غراس الدنيا والآخرة ثمرتها ومن أراد نفع مصر فليقلد يوسف الصديق صلى الله عليه وسلم وَيَتَّبع خطواته و يقتد بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى أخلاقه وليؤمن بقوله تعالى (ونريدُ أن نَمُنَّ عَلَى الذينَ استضْعِفوا فى الأرض وَنجْعَلَهم أئِمَةً ونجْعَلَهُم الوارثين).

الاجتماع فى الجمعة والعيدين والجماعة والحج

قد أسلفنا لك كيف كان الاتحاد فى الأحوال والأخلاق داعياً للاتحاد والائتلاف والمحبة وكذلك فى العالم المشاهد آثار ألم تر كيف جرى ماء النهر فسارع الى البحار جرياً إلى مستقره لينضم الى جنسه وهكذا الحجر ترفعه إلى أعلى فيأبى إلا أن ينزل إلى مقره والأجسام الثقيلة كلها تتحرك إلى أسفل طلبا لأخواتها وحباً فى الائتلاف بجماعتها ، وهكذا الأجسام الخفيفة ألم تر كيف ارتفع الدخان لينضم إلى الأجسام الأخرى فى طبقاته للاتحاد فى الجوهر والصفات فهكذا الناس لا يتعاطفون إلا حيث يتفقون ولا يتحابون إلا حيث يتشاكلون وانظر كيف ترى الطفل يجرى لاضرابه والخادم يحب أمثاله . وترى كل أناس امتازوا بصفة يتضامنون لأجلها و يتقاربون بسببها فالمحامون تراهم يشمرون لاهانة أحدهم والتلاميذ يسرهم ما يسر أحدهم ، وعلى ذلك سعت الأمم قديماً وحديثاً في انتشار لغاتها وأديانها وعلومها وأخبار شجاعتها وملوكها ومدح رجالها والتحدث بجمالها وعظمتها كل ذلك ليجتذ بوالهم إخواناً و يقربوا منهم اخداناً وأحباباً فيعظم قدرهم و يذاع صيتهم ويكون لهم وراء ذلك فخر عظيم ومجد كبير على مقدار اتباع من اتصف بصفاتهم وورد مشاربهم وروى من مواردهم

ومن هنا تعلم حكمة التشريع فى الاجتماعات والجماعة فى الدين الاسلامى . فانظر كيف يجتمع المصلون كل يوم خمس مرات فى الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء يذكرون الله و يعبدونه بأقوال وأفعال متحدة و يصطفون صفوفاً منتظمة . ووجبت عليهم الجماعة وجوبا كفائيا بحيث يشعر أهل كل جهة انها فيهم مقامة

ويسمعون الاذان يذاع بين الصغير والكبير . تأمل كيف يقول صلى الله عليه وسلم لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكم أو ليُخَالِفَنَّ اللهُ بينَ قلوبكم . ومن هنا نفهم السر العجيب النبوى الاجتماعى وكيف يقول صلاةُ الجماعة أفضلُ من صلاة الفذِّ بسبعٍ وعشرين درجة

هذا سر عجيب لداعية الاتحاد والائتلاف ولما كانت كل جهات البلدة واجباً اتصالها لازماً ائتلافها فُرِضت الجمعة وشدد الشافعىُّ رضى الله عنه فيها فأوجب أن تكون فى البلد فى مكان واحد ليأتلف الجمعُ المحتشدُ وتتحد الأفئدة وشرعت صلاة العيد ليتعارف أهل المدينة ومن حولها مرتين فى السنة

ولما كانت الأقطار المتنائية والمتباعدة من أهل الاسلام لا جامعة بينهم ولا صلة تربطهم شرع الحج وكان من أحد أسبابه تعارف الوجوه المختلفة والأمم المتباعدة وتحابهم وتوادهم فانظر كيف يتعارف الهندى والصينى والسودانى والأوروبى ويتعرفون أخبار أممهم وأحوالهم وعاداتهم ونُظُمَهُمْ وكل ذلك أووث محبة بينهم وأودع فى قلوب أولئك القوم المتباينين من الحب والاشفاق والحنو مالا يخفى على أحد .

ثم انظر كيف تنفطر قلوب مسلمى آسيا إذا سمعوا أخبارا سيئة عن مسلمى أفريقية وهكذا أحوال الأولين بالنسبة للآخرين فتأمل وتعجب

أدب الانسان فى نفسه

من أدب النفس أن ترعاها فى السر كما ترعاها فى العلانية فصن نفسك فى الخلوات كما تصونها فى الجلوات. من ذا الذى تهون عليه نفسه فلا يقيم لها وزنا فيجترح الاثم ويرتكب الذنب. فليكن أدبك مع نفسك أكثر من أدبك مع غيرك إلا أن الأخلاق عادات ومن اعتاد السيئات فى خلوته غلبت عليه فى علانيته فافتضح أمره فكن كما قيل

فسرى وأعلانى وتلك خليقتى   وظلمةُ ليلى مثلُ ضوء نهارى

إلا أن للخواطر السانحات لأثراً وللمعانى الكامنات لعملا فأدب السريرة وأنظمها وأكبح الخواطر وأقهرها وتأدب فى الخلوة واحفظها

ومن أدب النفس نظام الطعام والشراب و اللباس وزينتها بالكمالات العقلية والفضائل النفسية وقد مر كثير منها غير أن للباس حقا ما قضيناه . فأدب اللباس أن يكون وسطا مقبولا فلا تخالف زى قومك وعادة طائفتك . ألا ترى أن للشرقيين من الزى ما ليس للغربيين وللتجار ماليس للعلماء ولتكن زينتك على مقدار ما أتاك الله من مال وما منحك من ثروة فاذا لبس المثرى ملبس الفقراء فما أحراه باسم المقتر وإذا لبس الفقير ملبس الغنى فانه مسرف . وكن معتدل الحال فى مراعاة اللباس من غير إكثار ولا إطراح فلا تصرف عليه كل عنايتك ولا تزد عن مقدار ثروتك . قال المتنبي

لا تُعْجِبَنَّ مَضِياً حسنُ بِزته   وهل يروقُ دفيناجَودةُ الكفَن

وقال ابن الرومى

وما الحَلْىُ الا زينةٌ لنقيصةٍ   يُتَمِّمُ من حسنٍ إذا الحُسْن قَصَّرا
فأما اذا كان الجمالُ مُوفَّراً   كحُسْنِكِ لم يَحْتج إلى أن يُزَوَّرَا

وقال آخر :

وترى سفيه القومَ يُدَنِّسُ عُرضه   سَفهًا وَيَمْسَحُ نعلَه وشِرَاكَها

ولا يوقعُكَ مثل هذا الشعر فى مذمة الترك وازدراء النفس وعدم المبالاة باللباس فقد روى عن عائشة رضى الله عنها أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال مالك قال من كل المال قد أتانى الله فقال ان الله يحب اذا أنعم على امرىء أن ينظر الى أثرها عليه . وقيل المروءة الظاهرة في الثياب. إلا أن للظواهر لآثاراً ولحسن الشكل وجمال الزينة فضلا فى حسن المعاملة وجمال المعاشرة وانى لأعرف امرأ متصفا بالعلم والصلاح ازدراه صديقه لقذارة ثوبه حتى أبعده عن مجلسه وأقصاه عن داره كن نظيف الجسم نظيف الثياب بهج الهيئة حسن اللقاء عطر الرائحة فلا يرين

الناس منك إلا جمالا ولا يشمن إلا عطراً ولا يسمعن إلا حسنا ولا يرون هناك إلا أحسن القصص وأجمل الثناء

أداب الاجتماع

لتكن مع الناس كالنجم إذا طلع والبدر إذا ظهر فليبدون لهم إنسك ونورك وليبعدن عنهم زهوك وغرورك فإن جئت مع من علا قدره وسما ذكره فلا تقعد متكئاً ولا تعبث بيد ولا تناج جارك و إياك أن يغلبك النعاس أو السعال أو التثاؤب أو العطاس فإن غلبتك فجانب المجالس واعلم أن السلامة بالتباعد خير من الندامة بالاقتراب وتذكر سورة الحجرات وما فيها من العظات (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ

اجعل الحب شمسك المشرقة وقمرك المضيء وابتسامك دليلا على اخلاصك الحياة بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ولا محيص من الجمعية البشرية والاخلاص والحب هما المغناطيس والكهرباء والأدب وحسن الحديث . وتأمل كيف أمر صلى الله عليه وسلم بأن يتأسى بنوح وصبره وموسى ومطاولته ويوسف وعفوه وخلقه ونهاه أن ينسج على منوال ذى النون أو يكون كآدم إذ نسى ولم يجد له عزماً

إن ذا النون التقمه الحوت وهو مليم قال تعالى ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم وتأمل كيف شبه الكافرين بامرأة نوح وامرأة لوط والمؤمنين بمريم ابنة عمران و بزوجة فرعون إذ صبرت على الأهوال وقالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجى من فرعون وعمله ونجى من القوم الظالمين ، ولا تنس ذكر الأبطال من الصحابة والتابعين كأبى بكر وعمر الفاروق وغيرهم فى أمم الشرق وأمم الغرب أجمعين

أداب الزيارة

إن للزيارة لآداباً يجمل بالأديب مراعاتها فمنها الاستئذان قال الله تعالى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) ولا تطل المكث عند الأمراء ولا الجلوس عند المرضى ولا من تراكمت أشغاله وتزاحمت أعماله قال استاذنا المرحوم الشيخ عبد الهادى الابيارى :

ولا تطيلن مكثاً عند ذى مرض ولا أمير ولا ذى شغل انحتما

وتفقد حال من تزوره فامكث حيث يحسن الجلوس وقم حيث يحسن القيام واعتبر ذلك مع المزور ولا تجعل قول الشاعر :

لا تزر من تحب فى كل شهر غير يوم ولا تزده عليه

فاجتلاء الهلال فى الشهر يوم ثم لا تنظر العيون إليه

مقياساً تقيس به زيارتك بل ذلك يختلف باختلاف الأصحاب فمنهم من يحتاجك كل صباح ومنهم من يود لقاءك كل جمعة أو كل شهر أو كل سنة وهكذا زن أقوال الشعراء والأدباء والعلماء بميزان عقلك. ومن الآداب أن تشاطر الحزين وتقاسم الفرح فى فرحه وأنفذ شعاع بصيرتك إلى المزور فإن رأيته قد ظهرت عليه علامات الملل أو بدت له سانحة شغل وعمل كأن سكت عن الكلام أو كان متحفزاً للقيام أو نظر فى ساعته فأسرع بالخروج بعد الاستئذان ولا تطل المحادثة واقفاً فتلزمه الوقوف على قدميه وقابل زائرك بالبشاشة والأدب والاحترام وحيه بأحسن من تحيته وشيعه إلى الباب وخص بالعناية من هو أكبر منك سناً أو مقاماً فقابله من الباب ولا تحتقر أحداً بل أقبل على كل من زارك وتذكر ما خاطب الله به نبيه صلى الله عليه

وسلم إذ قال معاتباً له (عَبَسَ وتولى أَنْ جاءه الأعمى ومايُدْرِيك لَعَلَّه يزكّى أو يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكرى ولا تكن فى محل آخر والزائر منفرد إلا لداعية. ورد الزيارة وعد المرضى وخفف عندهم الجلوس إلا إذا كانوا يميلون لكلامك ومقامك كما قدمنا وقل عند انصرافك كشف الله حزنك وغفر ذنبك و حفظك فى دينك و بدنك

آداب السفر

(١) يبتدىء برد المظالم و إعداد النفقة لأهله وعياله ويرد الودائع وليتخذ له زاداً حلالا وليوسع على رفقائه قال ابن عمر من كرم الرجل طيب زاده فى سفره ويعرف خلق الرجل بسفره فان حسن فيه كلامه وطاب طعامه وظهرت مكارمه فذلك الذى يرجى سفراً وحضراً .

(٢) واختر لك رفيقاً ولا تخرج وحدك فالرفيق ثم الطريق وليؤمر الجماعة عليهم واحداً يجمع شملهم ويلم شعثهم وليكن أحسنهم خلقاً وأرفقهم وليقم بما أملوا فيه .

لما أمرّ أبو على الرباطى عبد الله المروزى عليه فى السفر قام عبد الله يحمل زاديهما على ظهره وبات ليلة على رأس أبى على والسماء تمطر وفى يده كساء يمنع عنه المطر وكلما نهاه يقول ألست تقول أنى أنا الأمير .

(٣) وأن يودع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء لقوله عليه الصلاة والسلام (إذا أراد أحدكم سفراً فليودع إخوانه فان الله تعالى جاعل له فى دعائهم البركة)

(٤) وأن يصلى فى بيته قبل سفره صلاة الاستخارة

(٥) وإذا ركب فليقل سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين

(٦) وإن يرحل عن المنزل بكرة وإن يرفق بالدابة وأن يراعى نظافة الثياب والبدن فى السفر ليبقى جميلا حسن البشرة فيحمل المرآة والمكحلة والمقراض والسواك والمشط هكذا كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً .

آداب الطريق

إذا جلست فى الطريق فغض النظر عن المحرمات وكف الأذى عن المؤمنين والمؤمنات وأعن من استعان بك من ذوى الحاجات ورد السلام على من سلم عليك وإذا رأيت منكراً فغيره بالاصلاح أو خللاً فيما أمامك من عمل فأمر باصلاحه وإذا رأيت مظلوماً فأغثه أو ظالماً فانهه وخذ على يده فأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما يصيبك وكن من المصلحين . فى حديث البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال إياكم والجلوس على الطرقات فقالوا ما لنا بد إنما هى مجالسنا قال إذا أبيتم إلا المجلس فاعطوا الطريق حقها قالوا وما حق الطريق قال غض النظر وكف الأذى وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

آدب المحادثة

وما بقيت من اللذات إلا محادثة الرجال ذوى العقول

محادثة العقلاء تزيد العليم علماً وترفع المرء الوضيع وتبعث فى قلب الجبان شجاعة وفى نفس البخيل كرماً . وكأى من جاهل صار بمجالس الحديث عالماً . وللمحادثة آداب فلا يصدنك عنها الهوى .

فأولها أن يرى محدثك انك على أن تسمع أحرص منك على أن تقول وعلى أن تستفيد منه أحرص منك على أن يأخذ عنك . وإياك أن يشغلك عن سماع قوله شاغل . أو يصدك عن الاصغاء إليه خاطر . وإن غشيتك شبهة فيما يقول فدعها حتى يفرغ من مقاله واقبل بوجهك عليه وليرَ ذلك ظاهراً فى لحظاتك وحركاتك وسمائك .

وثانياً أن يكون الكلام لمضرة تصرفها أو منفعة تجلبها فالناس لأقوالهم أسرع منهم إلى أعمالهم فما أخف حركات اللسان وما أضره بأذى الانسان يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً . يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم.

وثالثها ألا تعدو به وقت الحاجة ولا تقصر فتجعله سابقاً لا وانه أو متأخراً عن زمانه فلقد جعل الله القلوب كالزريعات (الأماكن المزروعة) والكلمات بذوراً ولكل بذر وقت لا ينمو إلا فيه فلكل كلام زمن لا يؤثر في غيره فاحذر خلتين اثنتين التوانى والعجلة .

ورابعاً أن تقدره بقدره إيجازا ومساواة واطناباً على حسب حال المخاطبين وإياك أن تنطق بلا تفكير أو تفعل بلا تدبير وليكن لفظك حسناً ومعناك بديعاً .

وخامسها أن تغض من صوتك وتقلل من حديثك ويكون كلامك وسطا فلا تخفضه حتى يخفى ولا ترفعه حتى يؤذى السامعين .

وسادساً أن ترتل الكلمات ترتيلا فلا يأخذنك الاسراع ولا يقعد بك الابطاء فكلاهما منبوذ وصاحبهما عن القلوب مصروف وإياك أن تحادث الانسان إلا فيما يعنيه وما يحسنه ويدر به فلا تحادث الفلاحين فى الحواشى ولا التلاميذ فى المواشى ولا الجند فى فقه ابن دقيق العيد ولا الحداد فى مقصورة ابن دريد . وكن مع الناس كما فطروا عليه فلله مع كل نفس سر مصون وهو يتجلى عليهم تجليات بعدد أنفاس المخلوقات . وهاك بيتين مما نظمت به أدب الدنيا والدين .

للقول داع له يدعو وموضعه • ورونق اللفظ والتقدير للكلم
فان عرى اللفظ عنها كان مطرحاً • وإن حواها فقل هذا من الحكم

وسابعها إذا سئل غيرك عما تعلم فلا تبادر بالجواب فتسيء محدثك أو علمت بعض قول محدثك فاصغ له كأنك لم تسمعه فلعمرى أن تلك الآداب مجلبة للمحبة وسبيل المودّات. وإن أكثر من يحبهم الناس كانوا من ذوي الايناس والاستئناس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يحب السهل الطلق الوجه .

وقال وهب بن منبه إن رجلا من بنى إسرائيل صام سبعين سنة يفطر فى كل ستة أيام فسأل الله تعالى أن يريه كيف يغوى الشيطان الناس فلما طال عليه ذلك ولم يجب قال لو أطلعت على قضيتى وذنبى بينى وبين ربى لكان خيرا لى من هذا

الأمر الذى طلبته فأرسل الله إليه ملكا فقال إن الله أرسلنى إليك وهو يقول لك إن كلامك هذا الذى تكلمت به أحب إلى مما مضى من عبادتك وقد فتح الله بصرك فانظر فنظر فاذا جنود إبليس قدأحاطت بالأرض وأن ليس أحدمن الناس إلا والشياطين حوله كالذباب فقال أى رب من ينجو من هذا قال الورع اللين .

آداب الأكل والشرب

(١) كل الحلال الطيب مكسبه وتذكر ما قدم الله من النهى عن أكل المال بالباطل وقدمه على قتل النفس يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بالباطل الآية.

(٢) وقدم غسل اليدين قبل الطعام

(٣) وضعه على السفرة أو المائدة

(٤) ولا تجلس عليه متكئاً واقصد به ماجعل له من بقاء البدن وتقويته واحذر الاجتهاد فى التنعم وكثرة الألوان .

(٥) وليكن بسم الله أوله والحمد آخره وقل بسم الله عند أول لقمة وزد الرحمن عند الثانية والبسملة بتمامها عند الثالثة واجهر بها لتذكر غيرك وصغر اللقمة وجود مضغها ولا تمد يدك لغيرها قبل أن تبتلعها ولا تعب مأكولاً وكل مما يليك .

وإذا شربت فخذ الاناء بيمينك وقل بسم الله واشرب مصاً وأنت جالس ولا تتجشا ولا تتنفس فيه واختم بالحمد وقل بعد الشرب ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم . الحمد لله الذي جعله عذباً فراتاً برحمته ولم يجعله ملحاً إجاجاً بذنوبنا . وكل ما يدار على القوم فليكن يمنة وإذا شربت في ثلاثة أنفاس فقل الحمد لله بعد الأول وزد رب العالمين بعد الثانى والرحمن الرحيم بعد الثالث وإذا أكلت عند غيرك فقل . اللهم أكثر خيره وبارك له في رزقه ويسر له أن يفعل فيه خيراً واقنعه بما أعطيته واجعلنا وإياه من الشاكرين . ولا تبتدىء ومعك من يستحق التقديم ولا يسكت القوم على الطعام وليتكلموا بأجمل الكلام وليقصد كل امرىء الايثار

ولاتحلف على الأكلين ولا تحوج رفيقك أن يقول لك كل وأكرم ضيفك وأطل معه الجلوس ويسر ولا تعسر ولا تتكاف والاجتماع على الطعام من مكارم الأخلاق وراع الزمان والمكان والعادة وتفكر واعمل هداك الله للعمل الصالح .

ماينبغي الاقتصار عليه من المطعم والمشرب ومضار الترف

تعلمون أيها الطلاب الأذكياء أن النعم الخارجة عن ذواتنا ليست مقصودة لأعيانها ولا مطلوبة لذواتها . إن ما عند الناس من صناعة وما أوتوا من تجارة وما أتيح لهم من سلطان وجاه ونعمة ، كل ذلك مقدمات السعادة كشراع السفينة المجرى لها فى البحار والأنهار . ابتغ ما تشاء من مفاتيح الخزائن ، كن كما شاء الله فى الدنيا . تعلم العلوم واقرأ الحكمة . إدرس نظام العالم كن تاجراً . كن قاضياً . كن مدرساً . كن ذا مال وشرف . ليس فى هذا شىء مما يضاد الفضيلة . إلا إنما يزيد النفس فى الرذيلة ويبقيها فى الجهالة الشره على الطعام والشراب وتفانيها فى الزينة . إن الشره فى الطعام أو الاستكثار من الألوان وحصر الهم فى الزينة والتباهى والتفاخر بعرض الدنيا شأن الجاهلين وهمة الغافلين إلا وأن التغالى فى الزينة كما يفعل المصريون واضاعة المال فى الشهوات والتبذير فى المآتم والأفراح .

ضعف الجسد وموت العدد وفقد المدد ورق الولد وضياع البلد وذل الأبد

لتحفظ الأموال فى البلاد حتى لا يذهب عزها ليحفظ الناس أجسامهم من الشهوات وعقولهم من الضلالات والجهالات

وليعلم الطالب أن الطعام والشراب يشارك الانسان فيهما أخس الدواب وأضعف الحشرات وأحقر (الميكروبات) وليس مانتعاطى من الأطعمة بأحلى مذاقاً مما تزدرده النملة فى بيتها والعنكبوت فى نسجها والحية فى جحرها

ألا وإن الله عز وجل خلق لنا طبيبين حافظين وجنديين قادرين أطعنا أمرهما وسمعنا نصحهما أحدهما يتطلب الطعام بالترغيب والترهيب والآخر يبعدنا عنه

بالتأنيب والتأديب فأما الأول فهو المسمى بالجوع فانه ينذرنا بالآلام المعدة ويرغبنا بألوان الطعام وحلاوة المذاق فهو الذى تولى إحضار الطعام باللين والشدة والقوة والعلم فأما الآخر فهو المسمى بالشبع يبغضنا فى الطعام بعد الامتلاء وينذرنا إن تمادينا بالداء كأن الله عز وجل يقول إنما قيمة الطعام نتيجته وفضيلته فى تغذية الجسم وتقوية العضلات فأما ماعدا ذلك من الزخرف والاكثار وأمثالها فانما هى شغل ناصب وعذاب مبين إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين

مطلب : وإذا كان المال مطلوباً لقوام الجسم ووقايته ودوائه وشقائه فإياك أن تنهك قواك فى طلابه والاكان الانتكاس على الرأس ولتكن وسطاً فى أمورك والاكثر فقرك وأصبحت النفس نارا تتلظى تقول لك هل من مزيد النفس لا يقنعها شيء ولا حد لطلبها لا نهاية لنهمها ولذلك كان أشقى الناس الملوك قال ابن مسكويه (وقد حكمنا أن الملوك أشقى الناس فقرا لكثرة حاجتهم الى الأشياء ولقد صدق أبو بكر الصديق رضى عنه فى خطبته حيث قال : أشقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوك ثم وصفهم فقال ان الملك اذا ملك زهده الله فيما فى يده ورغبه فيما فى يدغيره وانتقصه شطر أجله وأشرب قلبه الاشفاق فهو يحسد على القليل ويتبرم بالكثير ويسأم الرخاء وان انتقصت عنه اللذة لايستعمل العبرة ولايسكن الى الثقة فهو كالدرهم الغش والسراب الخادع جلد الظاهر حزين الباطن فإذا وجبت نفسه ونضب عمره وضحى ظله حاسبه فأشد حسابه وأقل عفوه . إلا أن الملوك هم المرحومون ثم قال « ولقد سمعت أعظم من شاهدت من الملوك يستعيدها ثم يستعبر لموافقته وصدقه عن حاله وصورته » ثم قال ماملخصه « لقد غلط من يرى الملوك والجنائب بين أيديهم تقاد وأمامهم الحشم والخدم والأتباع والعبيد اذ يظن أنهم سعداء كلا فالناس بجمال مواكبهم فرحون وهم فى الهم والغم مغمورون وفى عذاب الحياة مشغولون صم عن الصيت عمى عن الزينة فهم لا يفرحون » وأنا أقول لايحملنك هذا على ترك الأموال فالفقير محدود الأعمال والجاهل أعمى لا يرى السبيل فاملأ

الخزانة مالا والقلب فضيلة وتقرب الى الله بما ملكك وما أتاك من قوة ومال وعلم فاعلم ذلك ومرن الصبيان عليه من مبدأ حياتهم ليعتادوه ثم اذا كبروا عقلوه فانما علم ذلك وعمله تمام السعادة   انتهى

ملحق كتاب جوهر التقوى

فى الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله . أما بعد فان الله عز وجل قد أذن اليوم بارتقاء أمم الاسلام ودليلنا على ذلك هذه النهضة المباركة الميمونة التى شملت الأقطار الاسلامية من مشارق الأرض ومغاربها فى الهند فى بلاد جاوه فى بلاد التركستان الصينية فى بلاد إيران وتركيا والأفغان و بلادالعراق وسوريا ومصروجنوب أفريقيا مراكش وتونس والجزائر وطرابلس وما وراء ذلك من أمم السودان قدأخذت تنزع عنها ذلك اللباس الخلق وأهدامها القالصة البالية من الجهل والضعف والاستكانة والتقهقر فى التعليم والزراعة والصناعة والامارة والتجارة وأخذت تلبس لباس العلم والعرفان كل على قدر طاقته .

والسبب فى ذلك أمر واحد وهو ديننا الاسلامى لأن هذه الأمم جميعها تشعر بشعور واحد ورأى واحد وهو اتباع القرآن ولما كان القائمون بالتعليم العام فى هذه الأمم الاسلامية عاكفين على أمور جزئية من الدين فى الأعصر المتأخرة الاسلامية اتبعهم الناس وقلدوهم ونسوا هذه العلوم الشريفة الدالة على حكم الله العالية و إبداعه العالى الشريف

فلما بث الله في هذه الأقطار علماء وحكماء أناروا السبل وأشرقت الأرض بنور ربها على يديهم وقالوا لهذه الأمم العظيمة يا أيتها الأمم استيقظوا إن الله عز وجل استخلفكم فى الأرض فهو ينظر كيف تعملون : اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله

والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب الغيب وَالشهادة فينبؤكم بما كنتم تعملون أنتم شهداء على الناس ورسول الله صلى الله عليه وسلم شهيد عليكم أنتم خلفاء الأرض (هوَ الذى جعلكم خلائف الأرضِ) — أنتم خير أمة أخرجت للناس — اللهُ سخرَ لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعاً منه الله سخر لكم الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والأنهار والأهواء والصحارى والقفار وسخر لكم كل شىء فكيف تركتم واجبه كيف تركتم نعمه ، الله سخرلكم البر والبحر وأمركم أنكم إذا سمعتم القول تَتَّبِعُونَ أحسنه وأن تأخذوا الحكمة حيث وجدتموها وقد خلق لكم من الأمم الأخرى عقولا أنتجت علوماً موافقة لدين الله السماوى فأدرسوها وفكروا فيها بعقولكم وانتفعوا بها لأن ربكم يقول لكم : ومن يؤتَ الحكمة فقد أُوتِىَ خيراً كثيراً وما يذكّر إلا أولو الألباب

شاعت هذه الآراء فى بلاد الاسلام فى زماننا وذاعت وانتشرت فى كل صقع من أصقاع الاسلام فأقبل الناس يقرءون كل علم وكل حكمة قديمة أو حديثة ومن بين ما نشر فى بلاد الاسلام الشريفة ما صنفته من الكتب العلمية ككتاب جواهر العلوم وميزان الجواهر والنظام والاسلام ونظام العالم والأمم ونهضة الأمة وحياتها وكتاب بهجة العلوم فى الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم الحديثة وكتاب سوانح الجوهرى وكتاب الحكمة والحكماء وجمال العالم والقرآن والعلوم العصرية وكتاب الأرواح وكتاب التاج المرصع وكتاب الجواهر فى تفسير القرآن الذى بلغ الآن ٢٥ مجلداً وهو منشور وسيكون له ملحق إن شاء الله وطال الأجل وكتاب أصل العالم وهو رسالة صغيرة وكتاب فى علم النحو وآخر فى علم البلاغة يحوى الأسفار العربية وموازنتها بالقرآن وكتاب أين الانسان وكتاب الحكمة والحكماء وكتاب باللغة الانجليزية على هيئة أين الانسان اسمه باللغة الانجليزية (الحساب فى سياسة الأمم ونظامها يجب أن يكون كالحساب فى نظام الخليقة) وهذا جعل لينشر بين أمم الشرق والغرب ككتاب أين الانسان

وعسى الله أن يتم ذلك النشر ومن الكتب المنشورة كتاب جوهر التقوى الذى نحن بصدد إعادة طبعه الآن ولما كان الله عز وجل لا ينزل المطر فى الأرض إلا بقدر ولا يخلق خلقا إلا لحكمة أردنا أن نسير على سننه سبحانه وتعالى فنزيد فى الطبعة الثانية من علم الأخلاق ما جادت به بعض قرائح العلماء من الأمم لأن الحاجة إليها ماسة وأمم الاسلام مُسْتَيْقِظَةٌ . لبيك يا أمم الاسلام لبيك يا أمم الاسلام سيكون فيكم نابغون وعبقريون قريباً جداً سينبغ فيكم رجال صدق لم تحلم بهم الأمم كلها. أتدرون لم هذا. لأنها هى الأمة الخاصة التى اتحدَ عندها علم الدين وعلم الدنيا فبينما أنتم تفسرون النبات وتشريح الحيوان وعلم الشمس والقمر والنجوم والبر والبحر وحكم ربكم إذا أنتم فى الوقت نفسه تَعْلُونَ على الأمم فى هذه العلوم وتكونون شهداء عليها وخلفاء الله فى الأرض وتكونون آباء الأمم كلها لترحموها وإياكم أن تقلدوا أوربا فى ظلمها وجبروتها ولا بعض أسلافكم المسلمين المتأخرين الذين اتبعوا شهواتهم وتركوا ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من العفة والقناعة والسهر على سعادة النوع الانسانى كله

هكذا أراد الله أن تكونوا وهكذا هو يريد ذلك أنا لا أعلم الغيب ولكنى أقول أن هذه آراء تنبعث من قلبى وليس عندى دليل إلا وجدانى والوجدان ليس حجة على غيرى ولكن الظواهر تدل عليه

لذلك أردت أن أجعل فى ملحق هذا الكتاب فى طبعته الثانية فصلا مما ترجمته من كتاب (كانت) العالم الألمانى فى التربية ووضعته فى تفسير أول سورة نزلت فى القرآن وهى : (اقرأْ باسم ربكَ الذى خَلَقَ خَلَقَ الانسانَ من عَلَقٍ اقرأ وربُّكَ الأكرمُ الذى عَلَّمَ بالقلم عَلم الإنسانَ مالم يعلم)

و (كانت) هذا انتشرت آراؤه انتشاراً مدهشاً فى أوروبا وأمريكا وجميع الأمم المحيطة بنا وهو رجل ضليع فى هذا الفن فهاك ما جاء فى سورة العلق تحت عنوان بهجة العلم فى قوله تعالى علم الانسان مالم يعلم صفحة ٢٢٥ من المجلد (٢٥)

بهجة العلم فى قوله تعالى علم الانسان ما لم يعلم

لقد تقدم فى (سورة الزمر) مانقلته عن الأستاذ (كنت) الألمانى فى التربية (فى تفسير قوله تعالى « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » فى المجلد الثامن عشر) وذكرت بعض ملخص المقدمة وفى آخر ذلك الملخص أنه أبان صعوبة التعليم المنزلى في صفحة ٢٥ ، وأن التعليم العام خير منه ، وأهدى سبيلا وأقوم قيلا ، والآن نلخص مابعده فنقول :

قال فى (الفصل السابع والعشرين) صفحة ٢٦ وما بعدها مايأتى : إن تعليم الطفل أولا يجب أن يكون تقليديا آليا ، يؤمر الصبي فيطيع و يعمل ، لأنه لاقدرة له على تفكير ، ثم بعد ذلك يعطى الفرصة الكافية للتفكر بنفسه والاستقلال فى تعلمه مع مراعاة القوانين ، وفى الحال الأولى إذا خالف ماأمر به يعاقب إما عقابا سلبيا بحيث يمنع مايطلبه من غيره ، و إما عقابا إيجابيا إذا أمر فلم يمتثل ، وليست مراعاة القوانين واطاعة الأساتذة فى الحال الثانية بمنافية لحرية التلميذ فى تفكيره وتمرينه ، فليس للأساتذة إلاالارشاد العام للتلميذ وهو يعمل بحريته التامة الكاملة. إن تعليم التلميذ إذا استمر بهيئة واحدة من حيث انه يسمع و يطيع ولا يفكر بنفسه ضار جدا ، فانه إذا مضت مدة الدراسة يصبح غير قادر على التفكير بنفسه ولا يستفيد شيئا ، وكيف يستفيد من هذه الحرية الحادثة بعد مدة التعليم وهو لم يتعلم كيف يستفيد منها أثناء التعليم ؟ ولايعزب عن البال أن هذه الحرية المعطاة للتلميذ يجب ألا يكون معها اضرار بنفسه كأن يعطى السكين فيقطع بها يده ولا بغيره من التلاميذ والا قيدت بذلك كأن يرتفع صوته فيكون ذلك ضارا بالباقين . إن من مزايا التعليم العام فى المدارس أن يقيس التلميذ قوته بقوة غيره فتحصل المنافسة و يقال له : إننا نعلمك لنصل بك إلى غاية قوتك أنت ، كما نفعل مع غيرك كذلك، فان القوى مختلفة

ثم إن التربية تنقسم إلى قسمين : تربية جسمية ، وتربية عقلية ، فالتربية

الجسمية ترجع إلى مابه إصلاح الطعام والشراب وجميع ضرورات الحياة من كل مايشاركنا فيه الحيوان ، فهذه إصلاحها أول مايجب تعليمه . فأما التربية العقلية فهى (ثلاثة أقسام : القسم الأول) التربية المدرسية ، وبها تظهر مواهب التلميذ الكامنة وينتفع بها فى بقية الحياة انتفاعا خاصا بنفسه لنفسه (القسم الثانى) التربية المدنية ، وهي التى بها يشارك الانسان مجموع الامة فى حكومتها ونظامها العام (القسم الثالث) التربية الأدبية العامة ، وهى التى بها يصلح الانسان لمشاركة الامم جمعاء فى حياتها الاجتماعية أذن القسم الاول أولها تعلما ، والاخير يأتى تعليمة فى النهاية . وبهذا انتهى تلخيص المقدمة من كتاب (كنت الالمانى) وجاء بعد المقدمة ما يأتى :

الباب الأول فى التربية الجسمية

فابتدأ ينصح معلمى التلاميذ فى منازل آبائهم قائلا لهم . أيها الأساتذة : أنتم (وإن كنتم مختصين بتعليم التلاميذ الكبار فى المنازل) عليكم واجب أدبى لاتنسوه ، وهو أنكم أعلم من فى المنزل ومحط آمال الاسرة فى الأمور التعليمية وقد يولد فى المنزل أطفال تستشارون فى تربيتهم الجسمية ، فعليكم أن تلموا بها ثم أخذ يشرح التربية الجسمية المذكورة فقال :

(١) إن لبن الأم أحسن ما يغذى طفلها . فأما لبن الحيوان فانه لايقوم بتلك التغذية كلبن الأم .

(٢) إن لبن الام قد يقل فلا يفى بتغذية الطفل ، ومن الناس من يغذون أطفالهم بما يظنون أنه يناسبهم ، ولكن هؤلاء عليهم أن يحترسوا كل الاحتراس من الخمر والتوابل والملح إن حرارة الطفل أقوى من حرارة الكبير ، فهى فى الاول ١١٠ بمقياس فارنهايت ، وهى فى الثانى ٩٦ بذلك المقياس ، فليس ينبغى أن نزيد حرارته الطبيعية كما لانزيد شهوة الطعام بالمهيجات الصناعية ، أنه ليس من المستحسن لكبار السن فضلا عن الاطفال أن يتدثروا بما يكثر الدفء لهم

لهم ويغطيهم غطاء تاماً ، وأن يعتادوا شرب ما هو حار جداً ، إن الاعتياد على البرودة أصح للاجسام على وجه العموم وأكثر تقوية لها ، إن السرير ذا الخشونة والبرودة أصح للطفل وأوفق له ، وهكذا الحمام البارد بشروط خاصة يسأل عنها الطبيب .

(٣) من العادات الرديئة أن يحزم الطفل كما جرت به عادة أقوام ، وهذه عادة ضارة جدا ، وخير من هذه العادة أن يجعل له صندوق يحيط به سير من الجلد ، ويجعل الطفل فيه ولايخرج منه ولو فى حال ارضاع أمه له ، وفى ذلك (ثلاث فوائد : الفائدة الاولى) ان الطفل إذا نام فى صندوقه بجانب أمه لايموت بالاختناق كما يموت بعض الاطفال فى أحضان أمهاتهم وهن نائمات (الفائدة الثانية) أن أعضاءه أعطيت حرية كاملة فى هذا الصندوق . فأما الحزام فانه يضر بها ضررا بليغا (الفائدة الثالثة) أن هذا الصندوق يقيه كل مايضره من الخارج .

(٤) مما يضر ضرراً بليغاً بالطفل أن يهتز في مهده ، كأن يعلق ذلك المهد فى حبل متصل بالسقف ومتى يشد ذلك الحبل يهتز الطفل ، إن ذلك شديد الضرر عليه ، كيف لا ونحن نرى الكبير يستضر بكثرة الاهتزاز إلى الامام والخلف فما بالك بالصبى ! فيجب الاقلاع عن هذه العادة .

(٥) اعتاد أقوام أن يعلموا أطفالهم المشى تارة بخيط طويل أو سلسلة ، وتارة بعجلة نقل ، وكلاهما خطأ فاضح ، وأشدهما ضرراً أولهما ، فانه إذا أراد أن يلتقط من الأرض شيئاً فان ذلك الخيط يؤثر فى جسمه عند الانحناء وجسمه لا يزال غضاً طرياً ، وما يحدث فيه من العيب لا يمكن إصلاحه بعد ذلك ، فليترك الطفل وشأنه ، فليحب أولا على الأرض ، ثم ليمش متى آن وقته ، ذلك هو الصراط المستقيم .

(٦) يجب أن تنبذ الآلات الصناعية فى ترقية الطفل بتاتاً .

(٧) من الأطفال من يأتون إلى هذه الدنيا وفى صورهم الجسمية خلل فيحتال

الآباء بآلات صناعية ليصلحوا هيئتهم كأن يوقفوهم بها مثلا فى أحوال خاصة ، فهؤلاء يجب أن يعفوا من ذلك ، وأن يتركوا وشأنهم أحراراً ، فانهم بهذه الحرية يمرنون أجسامهم ، ويكون الطفل بالحريه أقوى ممن استعملت لهم الآلات الصناعية

(٨) ليحذر القائمون بأمر الطفل من أضعف المؤثرات الصناعية عليه كما يحذرون من أقواها ، ولقد أخطأ الروسيون فى ذلك خطأ كبيراً فمات كثير من صغارهم ، ليست العادة وليدة ساعتها إنها تتكون بالتدريج شيئاً فشيئاً ، أما المسارعة إلى حصول الطفل عليها فذلك ضار به أشد الضرر . ثم قال : ليس من العادات ما هو أسرع وأكثر ضرراً من عادة التبغ (التدخين) وكل مشروب منبه أو مهيج كالكونياك ، فان هذه العادة يعسر الاقلاع عنها ، وهى عند تناولها أولا تحدث اضطراباً فى أجسامنا فاذا استمررنا عليها فانها تؤثر فى وظائف أعضاء الجسم المختلفة

(٩) يجب على مربى الصبى أن يعوده خير العادات فى تعاطى طعامه وشرابه فليكن كلاهما فى أوقات معينة .

(١٠) إن الفراش الخشن أفضل فى التربية من الفراش اللين ، وههنا قاعدة عامة وهى أن كل ترف ونعيم للصبى مضعف لجسمه ، وكل اخشيشان واخشيشاب مقويان لأعضائه الجسمية

(١١) على المربى أن تكون أحكامه صارمة فى تهذيب طفله وتأديبه ، ولكن حذار أن يبلغ به مرتبة الاذلال فيعيش عبداً ذليلا ، يجب أن يشعر الطفل بأنه حر ، ولكن لاتتعدى تلك الحرية الحد القانونى فيضر بحرية غيره مثلا كما تقدم هذا هو معنى التهذيب .

(١٢) إن الطفل فى ثمانية الاشهر الاولى من حياته لا تكون حاسة البصر عنده قد نمت نمواً تاما حتى أنه لا يكاد يفرق بين شىء وآخر والدليل على ذلك أننا إذا أدنينا السراج من عينيه ثم باعدناه عنه فانه لايتبعه بنظره ، وهكذا فى

ضحكه و بكائه فأسبابهما عنده غير جلية كحاسة البصر ، ولذلك نراه يبكى لأى حادث مبهم غير واضح ، ولو أنك لطمت يده فى الشهر السادس لصرخ كأنك لطمته بخشبة تتأجج ناراً ، فأمثال هذا الصراخ ليس فيه إفساد لطباعه ، فلا نكبح جماحه فيه بأن نتركه وشأنه حتى يسكت كلا . وإنما الصراخ الذى به يجب تأديب الطفل بان ندعه وشأنه حتى يعتاد السكوت من نفسه فهو ذلك الذى يأتى من قبيل الشهوات النفسية كأنه يبكى لاجل أن يرضع فى غير أوانه ، أو أن يطلب شيئا آخر لا يجوز له ، فهذا هو الذى يترك الطفل فيه وشأنه حتى يتعلم السير على القانون ويترك البكاء ، إذا أعطى الطفل كل شىء خوفاً من صراخه فانه تلازمه تلك العادة فى أدوار حياته وتكون أخلاقه مضطربة ، ليس من حسن التأديب أن ينتظر الابوان من الصبى تقبيل يديهما بعد عقابه بالضرب مثلا ، إن هذه العادة تعلمهم التظاهر والرياء .

(١٣) ليحذر المربى عادة الشتم فانها تحدث فى الصبى الجبن والحياء ، و بذلك يخفى ما فى نفسه ولا يظهره

(١٤) إياك أن تعامل الطفل معاملة الكبير فتلعب معه وتطلق له العنان ، وذلك بكثرة الملاطفة و إطلاق سراح الدلال له ، فان ذلك يجعله قاسياً صعب المراس إن الأبوين بذلك يصغران فى عينيه ولا يحترمهما ، ولمناسبة ذلك أذكر ما قاله الشاعر العربى

فاياك إياك المزاح فانه يقوى عليك الطفل والرجل النذلا

ومن ذلك ما قدمناه آنفاً ، وهو أنه يجب ألا يعطى كل ما يريده وينذرنا ببكائه ، بل ندعه حتى يترك عادة البكاء شيئاً فشيئاً ونعطيه كل شىء بقدر ، فبهذا يشب وهو كيس مخلص بلا وقاحة وتهور ظريف مؤدب النفس من غير جبن ، إن الوقاحة والتهور الناشئين مثلا من إعطائه كل ما يشتهيه بالبكاء لاطاقة للناس على احتمالها

(١٥) من عادات طبقة العمال أن يفسد الأبوان أخلاق أطفالها بهذه الطريقة فيجعلونهم كثيرى العناد ، صعبى القياد ، يأنفون من سلوك الصراط السوى فى المعاملات ، إن أبناء طبقة العمال أشرار بسبب معاملتهم بشدة الملاطفة ، ولقد شاع وذاع (وهو حق) أن أطفال طبقة العمال أكثر فساداً من أطفال الطبقة الراقية ، لأن الآباء من الطبقة الأولى يلعبون مع أطفالهم كالقرود ويغنون معهم ويكثرون من ملاطفتهم ، ويقبلونهم ويرتعون معهم ، إنهم يظنون أنهم عطفوا عليهم برأفتهم ورحمتهم وتحننهم إذا هم سارعوا إلى الطفل إذا صرخ أو لعبوا معه ، ولكنه إذا عرف أن صراخه لا يهتم به أحد ترك تلك العادة .

(١٦) علينا أن نمنع الطفل من (ثلاثة أشياء : الأول) الاعتياد على التلذذ فان ذلك مفسد ضار له (الثانى) حب البطالة والكسل فان ذلك أشد أمراض الحياة ، فليدرب الصبى على العمل من أول حياته (الثالث) التأنق والاسراف ، وبالجملة يجب أن نمنع الطفل من تربية الإحساس باللذات والآلام ، وههنا التربية سلبية لا إيجابية

(١٧) إن بعض الناس يؤمنون بأنهم إذا عودوا الطفل أن يتربص زمنا طويلا قبل أن يعطوه ما هو فى حاجة إليه فان ذلك يعلمه خصلة الصبر قال الأستاذ (كانت) وهذا حق وضرورى لاسيما فى حالة المرض .

(١٨) لا يجوز بحال أن تكسر شوكة الطفل بمقاومة إرادته مقاومة تامة ، ولكن يجب أن تقوم تلك الارادة وتعدل . أما كسرها بتاتا فلا ، نعم فى ابتداء الصبى يجب أن تكون طاعته عمياء فلا نبيح له أن يجعل البكاء سبيلا لإعطائه ما يشتهى كما تقدم .

(١٩) من عجب عناية المؤلف الشديدة بصراخ الصبى فى مهده وجعله أشبه بالحجر الأساسى فى التربية فقد كرره كثيراً ، وههنا فى صفحة ٥٦ من الكتاب يذكر قاعدة لذلك . فقال : إذا كان الصراخ لسبب ألم حل به وجبت المسارعة

لانقاذه من ذلك الألم ، وإن كان الصراخ لأمر يرجع إلى طباعه هو وجب الاعراض عنه . ثم قال : إن هذه القاعدة تستمر حتى يكبر فيعامل هذه المعاملة فاذا أخذ وهو كبير يعاند وجب علينا أن نقمع عناده بما يؤلمه إيلاماً أدبياً كأن نمنع عنه ما كنا نمتعه به من قبل من المسرات ، إن كسر شوكة الصبي ضارة به ، ولكن اذا عاملناه بأمثال ما تقدم أصبح لنا مطيعا سهل القياد .

(٢٠) أكثر المخاوف التي تعترى بعض الناس ترجع الى ظنون فاسدة كمن يخاف العنكبوت والضفدع ونحو ذلك مما تلقاه عن المراضع ، فعلى المربين أن يعودوه على أن يتناول ويمس كل ما يخاف منه من هذا القبيل كأن يلتقط العنكبوت كما يلتقط أى شيء ، وبهذا تم الكلام على التربية الجسمية ، وهو الباب الأول بعد المقدمة .

الباب الثانى فى التربية الجسمية العقلية

قال : إن هذه التربية هى الجزء الايجابى الطبيعى وما تقدم هو الجزء السلبي الطبيعى إن التربية العقلية الجسمية هى التى تفرق بين الانسان والحيوان ، إن هذه التربية ترجع فى الأكثر إلى تربية القوى العقلية فعلى الأبوين أن ينتهزا الفرص لترقية تلك القوى ، فأولا يمنعون منعاً باتا الاستعانة بالأدوات المساعدة على المشى ونحوه كما تقدم ، ويدعون الطفل يسير وحده ، لأنه إذا اعتاد ذلك كان أقوي له وأقوم لسعادته ، وإذا صح ذلك فى التربية الجسمية فليفعل معه ذلك فى التربية العقلية الجسمية من باب أولى ، مثلا نحن نستعين فى مقياس مسافات معينة بحبل نقيس به مع أننا نقدر أن نعرف تلك المسافة بأعيننا ، فالحاجة إلى الحبل نقص فينا هكذا نحن نحتاج إلى ساعة بها نعرف الزمن ، مع أننا يتسى لنا أن نعلم الوقت بضوء الشمس ، وإذا كنا فى غابة استعنا بالبوصلة لنعرف أين نحن فى الغابة ؟ مع أننا نقدر أن نعرف ذلك باتجاه ضوء الشمس نهاراً وبالنجوم ليلا ، ونركب السفن مع أننا يجب علينا أن نعوم ، فكل هذه مساعدات آلية مضعفة للقوى العقلية التى

يجب أن نستعملها فى استقلال البحث والمعرفة والكشف ، فنحو هذه الأعمال البدنية العقلية يجب إنماؤها وتقويتها ، ألم تر إلى (فرانكلين) المشهور ، إذيتعجب كيف لا يتعلم كل امرىء السباحة فى النهر والبحر ، وهى سارة لذيذة نافعة ، وقد أوضح أسهل الطرق لذلك فقال : قف فى ماء النهر حتى يصل الماء إلى عنقك وارم ببيضة فى الماء واجتهد أن تصل إليها فاذا اتجهت لتتناولها فانك لا بد رافع رجليك ، و إذا كنت لا بد لك من منع الماء أن يدخل فمك فانك لا بد رافع رأسك إلى الخلف ، واذن أصبحت فى حال هى مبدأ العوم ، فما عليك إلا أن تمد ذراعيك ضاربا بالماء بهما مرة بعد أخرى ، وهذا هو العوم :

(١) إن أمثال هذه التمارين الجسمية العقلية لا يتم نماؤها إلا بالقوة والمهارة والسرعة والثقة بالنفس .

(٢) ومن هذا القبيل تمرين الحواس ، ومن خير ما يقويها إلى أقصى حد ممكن الألعاب الرياضية ، كاللعبة التى يتظاهر فيها الصبى بفقد بعض الحواس كالبصر مثلا ، وتسمى فى مصر (بالتغمية) وقد كانت معروفة عند أهل اليونان ، وها هى اليوم فى كل مكان ، فهى عند الألمان والفرنسيين والانجليز ، ولا جرم أن هذه الطريقة بها يقدر الصبى أن يبحث ببعض الحواس وحدها تمرينا لها ، إن أمثال هذه الألعاب يستفيد منها الصبى (أولا) أنه يتعلم الصبر والاحتمال والتروى والتأنى (ثانيا) انه يكسب المسرة واللذة الحاصلتين بالتغلب على الصعاب (ثالثا) يتعلم خلوص النية وسلامة المقصد . وبهذا تم الكلام على الباب الثانى بعد المقدمة فى التمرينات الجسمية العقلية .

الباب الثالث فى التعليم العقلى بالمدارس

إن الإنسان خلق ليعمل ، ولن يتم له عمل مالم يتعلم تعلما نظاميا ، فيجب أن يكون له أوقات لتحصيل العلم ، وأخرى للعب والراحة ، ولا بد من انفصال كل

من الوقتين عن الآخر . فأما اختلاطهما فلا ، إن الانسان فى وقت الدراسة يتربص وقت الراحة الذى به يستجم قواه .

كيف تكون التربية العقلية الحقيقية ؟

لقد قدمنا تربية الجسم فى المقدمة والتمرين العضلى الحسى فى الباب الأول وكذلك فى الباب الثانى ، وفى هذا الباب قد وصلنا إلى لب التعليم ، فبعد أن فرقنا ما بين أوقات التحصيل واللعب فى الدراسة أخذنا الآن ندرس تمرين نفس القوى العقلية ، إن الانسان قد يرى صوراً كثيرة فاذا أدركها وميزها بسرعة عددناذلك ذكاء وتصورا ، وإذا أصدر حكمه عليها سميناً ذلك تصديقاً ، وهذا التصديق لا يتم إلا ببرهان ، واذا تذكر الحوادث الماضية عددناه حسن الذاكرة ، فههنا أربعة أمور:

(١) تصور وفهم وقد يصحبه ذكاء .
(٢) برهان به يدخل الجزئيات فى الكليات .
(٣) حكم بالمحمول على الموضوع : أى بالخبر على المبتدأ وهو التصديق .
(٤) تذكر للحوادث والعلوم .

فكل من التذكر والتصور يسمى قوة سفلى ، والتصديق أو الحكم الذى أتى به البرهان نسميه قوة عليا ، وإذا عرفنا هذا فهل نفصل فى التعليم بين القوى العليا والسفلى كما فصلنا بين أوقات الدرس وأوقات اللعب . كلا . ثم كلا . فمتى أردنا تمرين الذاكرة وجب علينا أن نقرن تمرينها بتمرين القوة الحاكمة فلا نجعل حفظ التاريخ أو الشعر اللذين وعتهما الذاكرة ، وهى التى اعتبرناها قوة سفلى بمعزل عن قوة الحكم فنقيس الحاضر بالماضى ونستنتج والافلا فائدة فيما نتذكره ، وما قيمة الرجل الذى يحفظ الشعر أو النثر أو التاريخ أو اللغات إلا كقيمة الدواب تحمل صور المتاحف ، و « كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم » . نعم لهذا وأمثاله فائدة ما وهو أنه يحفظ ليستنتج غيره من محفوظه ، وهكذا أهل الذكاء وسرعة الخاطر لا منفعة تجى منهم بغير الحكم الذى هو القوة العليا . فاذا ذكر الشاب قاعدة

علمية عامة وجب علينا أن نحرضه على أن يقتبس بيتاً من الشعر أو حادثة من التاريخ أو الخرافات ، فنحن بذلك مرنا القوة الحاكمة العليا مع القوة السفلى ، وهى الذاكرة .

يجب تمرين الذاكرة لأنها قوة مساعدة تحفظ الصور التى يحصل فيها الحكم لوقت الحاجة ، فهى خزانة يجب المحافظة عليها ، ولكن ليس معنى هذا أن تحفظ ما لا فائدة لنا فيه ، بل الذى تحفظه يجب أن يكون نافعاً لنا فى أعمالنا ، وعلى ذلك يمنع الشبان من قراءة الروايات فاننا لا نجنى منها منفعة لنا ، وغاية الأمر أنها تفيدنا تسلية وقتية ، وهى مع ذلك تضعف الذاكرة ، فانه مما يوجب السخرية والضحك إننا نحفظها لنقصها على الآخرين ، فلنمنع الروايات منعاً باتاً ، إنهم إذا قرءوها فانهم ينسجون فى نفوسهم معانيها ويتصورونها ولا تمرين يصحبها ، فتكون نفوسهم فيها محبوسة التفكير ، ناسجة على ذلك المنوال بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير . ويجب أن يمنع الشاب من اللهو والضحك لا سيما فى المدرسة ، فان ذلك يصبح فيه عادة ، وبهذه العادة يفقد المرء مواهبه اللطيفة العقلية ، إذ جعل نفسه أضحوكة للناس .

كيف نقوى ذاكرتنا

نحن نقدر أن نقوى الذاكرة بأربعة أشياء :

(١) بحفظ الأسماء التى تصادفنا فيما نقرؤه .

(٢) وبالقراءة .

(٣) وبالكتابة .

(٤) وبقراءة اللغات .

ولكن يجب مع تقوية الذاكرة أن نصحبها بالقوة العليا وهى الفهم ، ثم تأتى دراسة علم النبات وعلم الجماد والمعادن وجميع التاريخ الطبيعى ، ولا بد فى فهم هذه العلوم من الاستعانة بالرسم ، وتجب دراسة الجغرافيا والعلوم الرياضية والطبيعية ،

إننا بنظرنا فى ظواهر سطح الأرض نتوصل إلى معرفة تاريخها القديم وتاريخ من سكنها فى الأزمان القديمة وهكذا .

علينا أن نمزج علم التلميذ بالعمل ، ففى جميع العلوم الرياضية لا بد من التمرين عليها ، وفى الخطابة والالقاء مع الفصاحة يجب أن يكون مصحوباً بالفهم ، لا بد من القواعد العامة والقوانين للفهم والحكم ، وهذه القواعد والقوانين يجب أن تكون مصحوبة بتطبيق الكليات على الجزئيات.

وههنا أورد قاعدة للتعليم تشمل ما تقدم كله فقال : التعليم الادبى على وجه العموم إما طبيعى وإما أدبى ، والأول يشتمل على التهذيب وعلى تعليم العلوم، والثانى هو التعليم الذى به يميز الانسان بين الحق والباطل . ثم أخذ يقسم التعليم العام العقلى ثانياً إلى القوى السفلى كالمدركات الجزئية الوجدانية والحسية والذاكرة والحافظة وإلى القوى العليا ، وهى (أولا) استنتاج الكليات من الجزئيات (وثانياً) ترتيب القضية الكبرى على الصغرى (وثالثاً) إبراز النتيجة ، وأنا أمثل لذلك بأن ننظر فنرى أن زيداً وخالداً وعمراً لم يتعلموا فانحطوا فى أحوالهم الاجتماعية وهكذا الأمم فنقول : كل أمة نبذت التعليم ضعفت ، وكل ضعيف يحتل أرضه غيره فتكون النتيجة أن الأمة التى تنبذ التعليم يستعبدها غيرها ، فههنا ثلاث درجات استنتاج الكليات من الجزئيات ، ثم ترتيب القضايا ، ثم إظهار النتيجة

ثم أفاد أن خير طريقة للبرهان إنما هى التى تنحو نحو سبيل (سقراط) فى (جمهورية أفلاطون) التى تقدم منها جمل كثيرة فى التفسير ، وبهذا تم الكلام على الباب الثالث فى التعليم العقلى .

الباب الرابع فى التعليم الأدبى العام

هذا التعليم يراد به أن يكون للفتى بصيرة يعرف بها ما هو حسن نافع وما هو قبيح ضار ، فاذا كان التهذيب قد يدعو للعقاب الطبيعى والصناعى فى المدرسة فليكن بجانب ذلك أيضا تعليمه الحقائق فى أنفسها لتتربى فيه الأخلاق الفاضلة من

ذات نفسه لا من الخارج ، وقد ضرب لذلك مثلا فقال :

كذب التلميذ يوما عند معلمه أو أبيه ، أو أحسن أعماله ، فعاقبناه فى الأول وأنلناه الجوائز فى الثانى ، فهل ذلك يهذب أخلاقه ؟ كلا . لأنه يكبر ولا خلق له بل يعيش لحظ نفسه وحده . فأما إذا عومل بهيئة تدعو إلى الاستقلال وقيل له : إن هذا لا يجعل الناس يثقون بك ، فان ذلك يبعث فى نفسه خلق الصدق بلا توقف على عقابه إن أساء أو اثابته إن أحسن ، بل يكون ذلك من تلقاء نفسه .

فعلى المربين ألا يقفو عند حد المدرسة والأبوين أو عقابهما . كلا . بل يجب أن يقرن ذلك القانون المدرسى الواجب التنفيذ بالقانون الأدبى الشريف العام ، وهو الذى به يكون التلميذ إنسانا كاملا كما شرحناه فهذا هو الذى به يميز التلميذ بين الحسن والقبيح ، ويجب أن يقرن الثانى بالأول من ابتداء الحياة .

(١) ثم قال : الطاعة على قسمين : طاعة واجب تنفيذها بلا قيد ولا شرط ، وطاعة مقيدة بظهور برهان أنها حق . فأما الأولى فهى طاعة الأستاذ ، وأما الثانية فهو ما تدعو إليه نفس التلميذ بارادته هو ، وكلاهما لا بد منه لتهذيب الخلق .

(٢) القوانين يجب تنفيذها لا سيما فى المدرسة بقوة وحرية بلا هوادة ولا استثناء ، ولا يجوز للمعلم أن يبدى ميلا ما لتلميذ أو تفضيلا له ، فان ذلك لا يجعل القانون محترماً فاذا رأى تلميذ ما أن القانون غير مطلق التنفيذ تمرد عليه وصار شكس الطباع .

(٣) يزعم قوم أن التلميذ يجب أن يعمل بمجرد رغبته هو من تلقاء نفسه بالمشوقات ، وهذا قصور معيب ، إن هناك واجبات مدرسية تلقى على عاتقه ويعرف أن ذلك واجب عليه فلا بد من عمله بهيئة أنه واجب بغض النظر عن رغبته هو إن هذا حسن جدا للتلميذ ، فاذا قام بهذا العبء صغيراً فما أسهل عليه أن يتحمل الواجبات المدنية التى يؤمر بها وهو كبير ويجب أن نفهمه صغيراً .

(٤) كل ذنب يجب أن يتبعه عقاب ، وهذا العقاب على (ثلاثة أقسام: الأول)

العقاب الأدبى كأن نعامله معاملة جافة نوعاً ما كأن ننظر إليه نظر احتقار إذا كذب (الثانى) العقاب الطبيعى السلبى ، كأن نمنع عنه ما يطلبه مما يحبه ، وهذا يضاً ينحو نحو العقاب الأدبى (الثالث) العقاب بما يؤلمه ، ولكن فى هذا وحده يجب الاحتراس من أن نستذله فيعيش عبداً أمد الحياة .

(٥) يجب أن يكون العقاب مع الاحتراس من نتائجه النفسية ، مثلا : إذا عوقب التلميذ والمعاقب حنق عليه فان التلميذ يعتقد أن ذلك ليس إلا قضاء لبانة المعلم لمجرد إطفائه غضبه ، فيجب اذن (أولا) ألا يظهر الغضب (ثانيا) يجب أن يفهمه أنه لا يريد الا مصلحته هو .

(٦) ان هنا فارقة بين طاعة الصبى وطاعة الفتى . أما طاعة الصبى فهى عمياء وأما طاعة الشاب فانما هى مبنية على شعوره هو واحساسه بالواجب

(٧) ان أساس الأخلاق أنما هو الصدق ، ان الرجل الكاذب لاخلاق له .

(٨) على المربين أن يشجعوا الصبيان على اتخاذ الأصدقاء ليكون ذلك مسرة لهم وانشراحا ، وساعات المدرسة يجب أن يعقبها ساعات أخرى لاستنشاق النسيم وانشراح الصدر .

(٩) أزمان الشباب أصعب أيام الحياة وأكثرها اضطرابا ، فنحن فيها تحت اشراف غيرنا ، ولا قدرة لنا على الحرية فى اختيار أصدقاء الا نادراً .

(١٠) لا يعطى التلميذ من العلم الا ما يواتى طبعه و يوافق مشربه ، فليس من الحسن أن نجعل الحصرم زبيبا ، أو أن يضع التلميذ نفسه فوق قدرها ، فيجب الاحتراس من ذلك .

خاتمة فى التعليم العملى

ههنا ثلاثة قوى فى التعليم العملى لا بد من ابرازها : المهارة ، والبصيرة ، والقوة الأدبية . اننا نكون ماهرين فى أعمالنا متى كانت معرفتنا للشىء معرفة تامة لا سطحية ، ليس يحسن بنا أن ندعى معرفة أمر ما لا نقدر فيما بعد على

مزاولته بنجاح ، هذه المهارة يجب أن تصبح خلقا بسبب استكمالها ، وهذا الاستكمال يصبح بالتدريج عادة ، ان هذا الكمال فى المهارة هو العنصر الجوهرى فى تكوين المهارة فقط فان هى إلا موهبة . أما البصيرة فاننا بها نقدر أن نجعل غيرنا من أصدقائنا يساعدوننا فى مقاصدنا ، وهذه المساعدة لا ننالها :

(١) إلا بحزم

(٢) وبكتمان ما لا يجوز إفشاؤه من المقاصد .

(٣) وبأن نكون محترسين متحفظين ، ويجب مع ذلك أن نعرف أخلاق الآخرين ، وبالجملة ان مساعدة الغير لنا تلزمنا أن نضبط نفوسنا ونحكمها .

(٤) أما الأدب واللياقة وحسن التصرف فهو أهم آداب السلوك مع غيرنا ، ويجب علينا أن نستمسك بهذا الخلق ، ما أصعب أن ندرس أخلاق غيرنا ، ولكن علينا أن نجد فى ذلك من غير أن نفقد تحفظنا واحتراسنا ، وعلى ذلك يجدر بنا أن يكون فينا بعض التظاهر ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ يجب علينا أن نخفى عيوبنا وليس هذا غشا حقيقيا ، بل هو مباح جائز وإن كان له سياج من عدم الاخلاص إن التظاهر والرياء واسطة اضطرارية عنيفة ، لنكن حازمين ولكن لانضيع حسن طباعنا ولا نصل بالحزم الى درجة اننا لانبالى بغيرنا ، فالمرء يجب أن يكون شجاعاً ولكن بغير عنف شديد ، ان ضبط الانسان نفسه أول سلم للارتقاء الى مقام تكوين الأخلاق الفاضلة .

(١) ثم قال : علينا أن نقوى فى نفس التلميذ الملكة التى بها يساعد من أصابتهم نوائب الدهر فنتخذ شفقته مهمازاً لذلك ولا نساعده على الانفعال ومشاركتهم فى الأحزان .

(٢) لنتعلم قليلا تعلما تاما فذلك خير من أن نتعلم كثيراً تعلما سطحياً ظاهريا

هذا ما أردت نقله من ذلك الكتاب ومن أراد الزيادة فعليه بكتابنا الجواهر فى تفسير القرآن فى سورة العلق والحمد لله رب العالمين

فهرس

جوهر التقوى

صفحة

صفحة

